

الأعمال
الفكرية

تأليف : هنرى لنك
ترجمة
الدكتور ثروت عكاشة

العودة إلى الأيهات



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

مهرجان القراءة للجميع

العودة إلى الإيمان

على سبيل التقديم . . .

لان المعرفة اهم من الثروة واهم من القوة فى عالمنا المعاصر
وهى الركيزة الاساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر
المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على
الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الاسرة المصرية
اطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الاسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع
منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كاضخم
مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية
وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية
مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الاسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة
على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته
عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر
والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الاسرة فى الأسواق
باسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها
فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع
يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى
الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق
بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس
لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

كلمة أولى

كثيرا ما تمر بالأفراد والجماعات والشعوب، بل سكان الأرض أجمع، لحظات يساورهم فيها القلق وتستحوذ عليهم الحيرة، فلا يكادون يميزون بين الحق والباطل ولا بين الخير والشر ولا بين الفضيلة والرذيلة. فى هذه اللحظات يبلغ بنا الحرج مبلغا نجدنا معه أحوج ما نكون إلى سبر أغوار نفوسنا ننشد ما نملك من طاقات لنختار أيتها أجدى فى تحقيق ما نصبو إليه من راحة واطمئنان.

وكنت بدءا من سن الخامسة والعشرين يتناوبنى الشك الذى يساور كل شاب يعمل فكره فى مستهل حياته، فلم أترك بابا يقودنى إلى الإيمان إلا طرقته ولم أدع عالما أستطيع الوصول إليه إلا سألته. وما أظننى فاتنى الإلمام بالعقائد جملة، سواء أكانت سماوية أو غير سماوية. منعما البحث مستقصيا مقارنة بين ما جاء هنا وما جاء هناك. ثم مضيت استقصى ما كتب عن موضوع الإيمان فى العربية أو الإنجليزية إلى أن وقعت على كتاب «العودة إلى الإيمان» لعالم النفس هنرى لنك الذى اعترف فيه أنه ظل زهاء ربع قرن يستقبل مرضاه الذين كانوا يخالونه إلهها قادرا على أن يوفر لهم سبل السعادة، فكانت رغبته فى تحقيق أمنيات مرضاه سبيلا إلى إيمانه بإله ذى قدرة تزرى بقدرته، وأخذ يستشف آراء المترددين عليه بحسه أكثر مما يتلمسها بمنطقه، مؤمنا بعجز العقل عن إدراك كنه كثرة من الأمور العسوية على الفهم. وإذا ارتاحت نفسى إلى هذا الكتاب وما جاء فيه من دعوة إلى ضرورة الإيمان

مبنية على أسس سوية إذا بي أنهض إلى ترجمته حتى أسهم
بدورى فى تبديد الشكوك التى قد تساور عقول البعض، فظهر
مطبوعا بالعربية للمرة الأولى فى عام ١٩٤٨ ثم طبع ثانية عام
١٩٥٩، ومرة ثالثة فى عام ١٩٦٤.

وسوف نعرف كما عرف هنرى لنك - صاحب هذا الكتاب -
أنه لا مناص من أن نرتد إلى إيماننا القديم متجردين من
شوائب الشك طارحين شوارد القلق بعيدين عن شطحات
الجموح، كى ترتد إلينا راحتنا ويرتد إلينا اطمئناننا. عندها
سوف نقوى على أن نستقبل الحياة وادعين، مطمئنين إلى
الحق، مرتاحين إلى الخير، موصولين بالفضيلة، مستمتعين
بالجمال، وعندها سوف تتصل أنفسنا بالمجتمع عن رضى بما
تمليه روح الجماعة، وما تشيعه بين الأفراد من طمأنينة
واستقرار.

ولو رجع أحدنا إلى نفسه يستجلى تلك اللحظات التى غمره
فيها القلق لأدرك أن تلك اللمحات الخاطفة التى احتوته فى
مستهل شبابه كان مردّها إلى أول عهده بدراسة العلوم
الطبيعية وما تركته هذه الدراسة من أثر يزلزل النفس، وقد
يدفعها إلى التساؤل عن كنه هذه الأديان التى يدين بها الناس،
كما قد يدفع بها إلى التساؤل عن حقيقة الله: ما هى؟ وعلى أي
صورة تكون؟

وهذا الذى وقع للفرد، وقع للجماعات، كما وقع للشعوب،
بل لسكان الأرض أجمع. فلقد امتحن الجنس البشرى بهذا

على أثر الكشف عن هذه العلوم الطبيعية، وإذا العالم كله يقع في تجربة من القلق قاسية كادت أن تودي بالعلاقات والقيم والمثل وتأتى على أسسها وأصولها، وتطوِّح جانباً ما يسود العالم من استقرار وهدوء. وما برئ الدين ولا برئ الإيمان بما منى به غيره من شك وريبة، غير أنه من الخير للإنسانية أن هذا لم يدم طويلاً. فسرعان ما انبرى رجال علم النفس التجريبي يتبعون الدليل بالدليل ألا تناقض بين الدين والعلم، وأن الدين حين يبلغ مبلغه من النفوس يحقق للبشرية أوفر حظ من العدالة الاجتماعية. وكان لهذا أثره في عودة الناس إلى الدين وإلى الإيمان والاستمساك بما معهما من مثالية وقيم.

وفي هذا الكتاب للدكتور هنرى لنك الدليل بعد الدليل على هذا التطور في حياة البشر.

والمؤلف رجل من رجال علم النفس التجريبي المعروفين، وقد كان لتجاربه العديدة ودراسته الواسعة في هذا الميدان أثر كبير في إخراج هذا الكتاب الذى لقي نجاحاً منقطع النظير في أوروبا وأمريكا، حتى قدر قراؤه بالملايين. ولقد صدرت في أمريكا بأخيرة الطبعة الثامنة والخمسون. وإذا عرفنا أن الكتاب صدر أول ما صدر في سنة ١٩٣٦ دل هذا على أن طبعاته كانت تتوالى مرة كل ستة أشهر على وجه التقريب.

والدكتور هنرى لنك يروى للقراء قصة انحرافه هو نفسه عن الدين وعن الإيمان به، وكيف أخذ يتلمس بنفسه تأثير الدين في نفوس مرضاه، وكيف كان للإيمان فعل السحر في علاجهم، على حين كانت تخفق ألوان العلاج الأخرى. فهو لم يجد وسيلة

يعالج بها الآلاف من الحالات التي عرضت له إلا أن يعيدها إلى موازينها الجماعية، بالدين والإيمان وضروب من النشاط الاجتماعي. وظل هذا دأبه، فإذا هو يجد نفسه تعود بدورها إلى الإيمان، بعد أن تبين له بالدليل أنه لا مناص للإنسان من وجود إيمان على صورة ما... إيمان نقى مجرد مما شاب بعض الأديان من أساطير وما أصاب بعض هذه الأساطير من خلاف مرده إلى اختلاف الواضعين والتباين في بعض النصوص الموروثة.

وكما عاد الدكتور لنك إلى إيمانه بالدين، فقد عاد كذلك إلى الإيمان بما توارثته الأجيال من تقاليد قد يصفها أنصار «السببية» بأنها رجعية. وذلك بعد أن ثبت له أن هذه التقاليد وسيلة ناجحة فعالة لعلاج الأمراض الاجتماعية المختلفة، وأنها طريقة ناجحة حاسمة في التربية الفردية والجماعية.

وكان المؤلف قد أهدى هذا الكتاب إلى الملايين من الأجداد، الذين منحوا أبناءهم في يسر أكثر مما نمحه نحن أبناءنا اليوم على جهد منا ومشقة. ثم إذا هو إزاء الموقف العالمي الحالي، وإزاء اهتمام مئات الألوف من القراء الجدد بهذا الكتاب، يؤثر أن يهدى هذا الكتاب إلى آباء الغد في كفاحهم فرادى وجماعات ليقوموا من هذا العالم عالماً آخر أفضل، الحق فيه فوق القوة.

والدكتور لنك يعرض بعد ذلك لوسائل التربية في تكوين شخصية الإنسان السعيدة، وكيف يمكن أن ينغرس التوازن

العاطفى والفكرى والدينى والاجتماعى والفنى فى كل شخصية لتتوفر لها عوامل النجاح، وتتسنى لها وسائل السعادة، ويتحقق لها وجود يخدم صلاتها بالمجتمع الإنسانى الذى تعيش فيه. وبهذا يُقبل أفراد هذا المجتمع على مسئولياتهم الشخصية، فلا يفرون منها، ولا يلقون بها إلى سواهم، فى روح فردية مسرفة، أو أنانية مدمرة، أو انعزالية تفتت روح الجماعة.

وهذا الكتاب يعدّ نقطة تحول واضحة فى نظرة هذا الجيل إلى الأمور، وإليه يرجع فضل كبير فى توضيح ما للإيمان من أثر فى حياة الأفراد والجماعات والأمم والجماعة الانسانية كلها.

والمحقّق أن الانسان محتاج إلى إيمان ما كى يشقّ طريقه فى ظلمات هذا الكون، إذ هو دون هذا الإيمان سوف تستحوذ عليه نوبات من الشك والقلق قد يكون لها أثرها فى وحدة كيانه الذاتى، إذ لا بد للإنسان من ملاذ يلوذ به حين يستبد به الشك ويخلو إلى فكره وعقله ويعجز فى ضعفه البشرى عن أن ينهض وحده. فالإيمان هو الحل الحاسم السريع لمشكلات المجتمع، وذلك عندما يشيع فى حياة الأفراد والجماعات، فيؤمن كل فرد بواجباته، ويؤمن المجتمع بقيمه ومقدساته، يتوجّ ذلك كله إيمان ما يحدد علاقات الأفراد بعضهم ببعض الآخر وعلاقاتهم بالمجتمع، على أساس من الثقة والأمل. لهذا وجدنا الدول ذات الأنظمة السياسية التى أنكرت الأديان تحاول

جاهدة أن تغرس فى قلوب رعاياها الإيمان بما تدين به من عقيدة مادية أو فلسفية اجتماعية.

ولقد اقتضانى الحرص على تقريب الموضوع من واقعنا أن الجأ إلى حذف بعض الأمثلة البعيدة عما ألفناه فى حياتنا وبينتنا، وإضافة ما يزيد وضوحا وقربا إلى أفهامنا، وبصفة خاصة إضافة آيات من القرآن الكريم مقابلة لما أورده المؤلف من العهد الجديد. ولعل هذه المحاولة تحقق الهدف من الكتاب، وهو أن يستقر الإيمان فى ضمائرنا وتسود الطمأنينة مجتمعنا العريق. وإذا كان المؤلف قد لجأ فى علاجه لانطواء الشخصية، إلى ما تعارفت عليه تقاليد المجتمع الغربى وعاداته، فإن هذا لا يعنى أن ذلك هو الطريق الوحيد لعلاج هذا الانطواء، ورسم طريق السعادة للأفراد وللجماعة، فإن لكل مجتمع تقاليده، ولكل بيئة معتقداتها، وفى حدود هذه التقاليد والمعتقدات يمكن أن يقوم العلاج على أساس سليم واضح .

ولهذا فإننا نجد مدارس مختلفة لعلم النفس، ولكل مدرسة أسلوبها الذى تعالج به مرضاها. وعلى قدر إيمان الطبيب النفسى بمنهجه وطريقته يكون نجاحه. فالطبيب بقوة إيمانه بمدرسته وفلسفته يقوى على أن يبيث فى روع مرضاه الإيمان واليقين ويأخذ بأيديهم إلى برِّ السلامة والأمان.

ولا شك أن الهزأت التى اقتحمت العقائد هى أقرب إلى النزوات، وكما أن النزوة عَرَضٌ يزول كلما عمقت التجربة،

فكذلك هزأت القلق فى حياة الأفراد والجماعات، مصيرها إلى
الزوال وإفساح الطريق للإيمان بالله والمثل العليا وكل ما هو
جميل فى هذه الحياة.

وبهذا تمضى الحياة، ونمضى فى الحياة، بأمل فى
المستقبل أقوى فى حياتنا من شكوك الماضى.

٨ يونية ١٩٩٦

المترجم

الفصل الأول

عودتى إلى الايمان

«... واذا اردتم ان تعرفوا الله فلا تشغلوا انفسكم بحل الالغاز، بل انظروا فيما حولكم تروه يداعب اطفالكم، وانظروا إلى الفضاء تبصروه يسير بين السحاب وييسط ذراعيه مع البرق ويتنزل فوق المطر. سترونه يبتسم فى الزهر، ثم يصعد ويلوح بيديه فى الشجر...».

جبران خليل جبران

أرجو ألا يظن القارئ أنى أترجم له حياتى الخاصة فى تلك الصفحات، فحقيقة هذا الكتاب أنه موجز لتراجم الآلاف ممن ساقتهم الظروف إلى التردد على لمعالجتهم. وسأروى هنا قصة هذه الفئة وهى تحاول أن تتلمس حقائق الحياة وسط هذا العالم الصاخب المضطرب متطلعة إلى أساس راسخ متين تشيد فوقه صرح سعادتها وهنائها.

وما كانت عودتى إلى الإيمان شيئاً هاماً فى حد ذاتها، ولكن ربما كان تصويرى لتلك الطائفة فى نضالها وقنوطها وفوزها هو العامل الهام، فقد قام ذلك كله على مكتشفات علم النفس التى لم يتيسر بعد لسواد الشعب الوقوف على حقائقها مصرعة فى هذا القالب الجديد.

وهأنذا أقرر أن عودتى إلى حظيرة الإيمان لم تكن وليدة الضائقة المالية التى اكتسحت العالم وقتاً ما، ولو أننى أعترف مع ذلك بأن تلك الفترة قد ساعدت على نضوج بعض الحقائق

النافعة لى. وما كان علوسنى أو اقترابى من الشيخوخة -
هذان الشبحان اللذان غالباً ما يؤثران على تفكير المرء - هما
السبب فى عودتى إلى حظيرة الإيمان، فإنى فى مستهل
الخامسة والأربعين وهى سن تعتبر مبكرة نوعاً ما، ومازلت
بحمد الله موفور الصحة قوى البنية قادراً على الانحناء عشر
مرات متواليات، وسباحة ميل كامل، والتهام كل ما أشتهى من
طعام دون خشية أية عواقب. فعودتى إلى الإيمان لا ترجع إلى
تدهور صحتى ولا إلى ما عساه أن أكون قد قاسيته من آلام
تؤثر على عقلية مريض، فتجرفه فى تيار التمنى للتخلص من
هذه الحياة والإخلاد لحياة أخرى كلها راحة وسكينة. كما أنى
أقرر أيضاً أنها لم تأت فى أعقاب مصيبة أو كارثة من كوارث
الحياة، بل بالعكس جاءت بعد أن قضيت ستة عشر عاماً أنعم
فيها بحياة زوجية هانئة، فأنا محظوظ رزقت بأطفال ثلاثة هم
مصدر سعادتى وغبطتى، وأحرزت من النجاح أكثر مما كنت
أصبو إليه. أما إيرادى فيريو على حاجتى ومطالب أسرتى.

ومن هذا يرى القارئ أن هداى لم تصطحبه أية حبكة
درامية أو إثارة ما لعواطفى، فلم أمر بتجربة قاسية، ولم تحرك
إحساسى كارثة، كما لم يبهر بصرى اكتشاف جديد قد يؤدى
إلى هذا التبديل الذى أسجله الآن.

لقد أتانى الهدى ونيدا حتى أننى لم أتبينه فى نفسى خلال
مراحلة الأولى، وما كان مرجع هذا التبديل إلا تلك التجارب
المتواصلة التى صالحتنى خلال ممارستى لمهنتى كطبيب
نفسى.

وقد توفر لى بحكم مهنتى هذه خلال الخمسة عشر عاما السابقة أن أقدم النصح لحوالى أربعة آلاف نفس من الشباب والكهول والأغنياء والفقراء والفتيان والفتيات، وكانوا جميعهم - إلا فيما ندر - ذوى مشكلات عادية، كتلك التى تصادفنا كل يوم، فمنهم من لم يستطب أسلوب حياته ومعيشته فركن إلى الخمول أو حاول تغييرها، ومنهم من كان يشكو بؤس حياته الزوجية أو كان يسعى إلى الطلاق، ومنهم من كان يجد مشقة فى الاختلاط بالناس وكسب الأصدقاء، أو كان يعانى من الخجل والحياء، ومنهم من كان يحاول أن يجد حلا للمشكلات التى تعترض تربية أطفاله وتعليمهم أو التى تسفر عنها عاداتهم وطبائعهم. وكان منهم أيضا من يعانى صراعا عنيفا بين عقائده الدينية وتجاربه الدنيوية، أو بين التزاماته نحو أبويه ونحو نفسه، ومنهم من كان يريزح تحت بعض العادات القبيحة ويود الخلاص منها. جملة القول كانت مشكلاتهم جميعا عادية، ويمكن علاجها بواسطة أصول علم النفس، فهى بعيدة كل البعد عن الأمراض النفسية، التى لا يمكن علاجها إلا بواسطة الطب النفسى.

وسرعان ما وجدت نفسى بعد دراسة مشكلات هؤلاء الناس أستعين - إبان نصحى لهم - من وقت لآخر ببعض آيات الكتاب المقدس ونصوصه، وأميل إلى توصيتهم باتباع بعض الحِكم المناسبة. ولم أندفع فى هذا التيار الذى أخذ فى النضوج إلا حين أدركت عجز المعلومات النفسية والعلمية عن تقديم النصيحة اللازمة كاملة فى كل الأحوال، فما هى

بالحاسمة، ولا هي بالكافية لسد حاجات أولئك الذين سعوا إلى باغين النصح والارشاد.

وما حاولت مرة التعبر عن بعض الحقائق العلمية أو شبه العلمية لزيد من الناس إلا واستعنت بهذه الطريقة، مشيرا باتباع سنة خلقية حميدة تتميز ببساطتها. ولما تعددت أوجه الشبه بين هذه السنن الوضعية والتعاليم الدينية تبلبل فكرى وتأثرت ميوله، وبمرور الزمن وجدتنى قد تشبعت بعدد لا حصر له من التعاليم الدينية التى كنت قد نأيت بنفسى عنها منذ أكثر من العشرين عاما.

وعلى الرغم من أننى لم أتردد على الكنيسة أكثر من عشرين مرة فى مدى العشرين عاما السالفة، إلا أننى لاحظت انى أشير على مرضاى من وقت لآخر، ببذل نشاطهم فى معاونة الكنيسة والمشاركة فى أية جمعية دينية على غرار جمعية الشبان المسيحيين. جاءتنى ذات مرة سيدة شابة تتلخص مشكلتها فى أنها ترغب فى بدء حياة جديدة بعيدا عن مسقط رأسها واحتراف مهنة تقوم بأودها. وقد نجحت فعلا فى تحقيق رغبتها بعد أن تم اكتشاف نواح معينة من ميولها ولياقتها بوساطة بعض الاختبارات النفسية، لكنها عادت بعد ستة أشهر لاستشارتى قائلة: «... إنى مازلت أجد صعوبة فى معاملة الناس لاسيما الرجال منهم؛ وأخشى أن أكون مصابة ببعض العقد النفسية التى تحول دون بلوغ هذه الغاية، فهل من الممكن إزالة هذه العقدة؟»، وعندما شخصت حالتها اكتشفت أن ليست هناك أية عقبة لتحقيق رغبتها، فمشكلتها الكبرى

تَنحصر فى أنها كانت تعيش لنفسها، فلا يدور تفكيرها ونشاطها إلا حول ذاتها فحسب. كانت تفتقر إلى عادات معينة، وكفايات خاصة، لن تكتسب بالتحليل النفسى أو بالتأمل الباطنى، إنما بالمحاولة المتواصلة والمران الدائم. ولذا أوصيتها بعدة أمور، كأن تلتحق بكنيسة ما، وأن تنتهز كل فرصة لتقوم بنشاط فعال فى خدمتها بعد أن تلقى نفسها فى خضم العمل فى سبيل الغير. ولا يفوتنى أنها اعترفت لى ضمنا أن إيمانها صادق، وأنها أحد أعضاء كنيسة بلديتها، ولكنها سألتنى متعجبة: «اليس من الانتهازية الالتحاق بالكنيسة لمجرد تهذيب نفسى حتى أغدو سيدة اجتماعية؟».

وهنا لم أجد مفرأ من تفسير الأهمية النفسية للأديان متخذاً نشاط الأنبياء الاجتماعى الواسع، وحث الأديان الناس على إنكار الذات فى سبيل الغير مثلا على ما أقول. وقد ناسب هذا التفسير حالتها، إذ أن إدراكها الدينى لم يكن قد تعدى الإيمان ببضع عقائد، كما أنها لم تلتق فى حياتها بمن يرشدها إلى فضيلة إنكار الذات وإيثار الغير، ولا من يلقتها أن طمأنينة النفس وسكينتها لا تتأنيان إلا إذا قام المرء بعمل نافع للمجتمع، أو أدى خدمة للغير أثناء الخوض فى معمعة الحياة.

وفى هذه التجربة بالذات وجدت نفسى - أنا الملحد المنكر للبعث الكافر بالله - أتحمس بشدة مدافعا عن مبدأ الاتجاه الدينى فى الحياة.

أخذت مثل هذه الحوادث - التي سأورى بعضها فيما بعد - تدفعنى خطوة إثر أخرى، حتى اقتنعت تماماً بأن كل مكتشفات علم النفس لتقويم الشخصية والوصول إلى رضا النفس لا مناص من أن تنتهى إلى التمسك بالحقائق الدينية القديمة والتعلق بها.

وكما جرفنى العلم قديماً بعيداً عن الدين، كانت عودتى إليه أيضاً عن طريقه هو، ومن هنا كانت المفارقة. كنت عندما التحقت بالجامعة ورعا تقياً، كما كنت متمسكاً بدينى منذ نعومة أظفارى، أتأثر بتعاليمه وأواظب على مناسكه ولا أتخلف عن مواقيت الصلاة ولا أتوانى عن تقديم كل معونة فى سبيله حتى بلغ بى الأمر أن اندفعت ألقى دورسا دينية بين الفينة والأخرى وبمعنى آخر كنت شاباً متديناً متطرفاً، قد تناول جرعة دينية بالغة القوة.

وقد اشتهرت الكلية التى التحقت بها بأن ثمانين بالمائة من خريجها يلتحقون عادة بالوظائف الدينية، كما قد لمست فيها نشاطاً دينياً واسعاً. ولما كنت شغوفاً بالعلم والمعرفة والبحث عن الحقيقة شعرت أن المناخ العقلانى السائد هناك خانق. ومما زاد الطين بلة انتشار قصة العلاقة الغرامية بين عميد الكلية ورئيسة الراهبات، فأججت هذه الفضيحة كثيراً من الشكوك التى كانت تنتاب ذهنى المكود، فالتحقت فى السنة التالية بكلية أخرى من كبريات الكليات فى شرق أميركا، حيث بدأت أدرس تاريخ الفلسفة والتربية الدينية. أما تاريخ الفلسفة فهو قصة تحرر العقل البشرى من الخرافات والأوهام الدينية

المضلة. وقد لازم ميلاد العلوم وظهورها استشهاد تلك الكوكبة من العلماء التي اجتрат فتاوت على الكنيسة مسفهة عقائدها. وقد قامت هذه الدراسة على تمجيد العقل أى ربط الأسباب بالمسببات^(١) فكل حادث ما هو إلا حلقة من سلسلة الأسباب والمسببات التي لا تنقطع، بعكس الميل السائد لدى كبار رجال الكنيسة الأول أمثال ترتوليان^(٢) الذي قال: «لا معدى عن الإيمان بتعاليم الكنيسة برغم سخافتها»، فأظهرت هذه الدراسة التناقض بين زهد المسيحيين الأوائل وإنكارهم لسرمدية هذه الحياة، وبين وثنية الاغريق وإغراقهم فى إشباع شهواتهم وتحقيق مبدأ اللذة والإمتاع، وأظهرت كيف تطورت الطقوس الدينية والنظريات والمذاهب الكنسية تبعاً لمجريات القوى السياسية، ونهضة الحضارات واندثارها. كما أسهبت فى وصف أثر كل من علوم الطبيعة والكيمياء والأحياء والنباتات الأرض، الواحد تلو الآخر - فى تنوير الأذهان وتبديد الأوهام، مزيحة الستار عن مغالطة العتائد الدينية وسفسطتها.

ومن هنا كان هذا الشوط من الدراسة هو أمتع وأبهر ما لقنت وأعظمها تأثيراً على، لأنه كان الجواب الشافى على تلك الشكوك الدينية المختلفة التي ساورتنى من قبل، ولم أهد إلى حل لها يقنعنى، فخرجت من ذلك كله باحترام عميق لسلطان

(١) قال تعالى فى كتابه الحكيم (واتيناه من كل شئ سبباً فأتبع سبباً). وفى هذا النص الكريم ما يكفى لاثبات أن الدين لا يتناقض مع العلوم - (الترجم).
(٢) Tertullian.

العقل، ولكتشفات العلم الحديث. أما عقيدتى الدينية فهوت حين لم تجد ما تستند عليه.

وفى العام الدراسى نفسه درست التربية الدينية، وكانت هذه الدراسة عرضاً تاريخياً للتطور الذى لحق بالكتاب المقدس، فعرفنا الطريقة الفاسدة التى اكتمل بها هذا الكتاب، ولسنا فى الأسفار التى درسناها الدلائل القاطعة على أن رجال الدين - الواحد تلو الآخر - قد أخذوا يعبثون بالكتاب، فيعيدون كتابة بعض أجزائه مُضيين إليه ما يعن لهم. لذلك قسمت محتويات «العهد الجديد» إلى ثلاثة أقسام متساوية: تلك المقطوع بصدقها أى التى جاءت عن لسان المسيح، وتلك المشكوك فيها وتلك التى زيفت على مرّ الأيام. وهكذا كانت هذه الدراسة - التى جعلت كل ما سبق أن اعتنقته من مبادئ الكتاب المقدس يبدو صبيانياً أمام ناظرى - خير نموذج لما كانوا يدعونه وقتئذ: «النقد العالى».

وليس هناك ما يدعو بطبيعة الحال إلى ذكر كل ما درسته بالجامعة غير أن هناك مادة واحدة تستحق الذكر، شئ علم دراسة الأجناس، وقد كانت هذه المادة أكثر المواد شيوعاً وأشدّها هدماً، أكثرها شيوعاً لسهولة اجتياز امتحاناتها، وأشدّها هدماً لأنها كانت بعيدة الأثر فى قلب عقائد الطلبة الدينية رأساً على عقب. وقد بلغت هذه المادة الذروة فى الهدم خلال تلك المحاضرة التى رسم فيها الأستاذ دائرة صغيرة تحوطها دائرة أكبر ثم عقب قائلاً:

«تتضمن هذه الدائرة الصغيرة على مملكة الحقائق العلمية التي نلمّ بها إلاماً تاماً ونستطيع إثباتها، أعنى حقائق علوم الطبيعة والكيمياء والرياضيات، إذ يمكننا على سبيل المثال إثبات وجود عناصر كيميائية معينة. أما هذه المساحة الكائنة بين الدائرة الصغرى والكبرى فهي ميدان الحقائق الثابتة ثبوتاً جزئياً وأنصاف المعلومات، مثلما نعتقد بوجود عناصر أخرى برغم أن هذه المعرفة غير مؤكدة. أما ما هو خارج عن هذه الدائرة الكبرى فهو مملكة الخرافات والعقائد والأوهام التي لا نملك عليها برهاناً، حيث تحوّم فكرة الله والمعتقدات الدينية فى هذه المنطقة غير المحدودة، فنحن لا يمكننا إثبات وجود الله كما لا يمكننا إثبات عدم وجوده. وقياساً على ذلك لا يسع المرء اللبيب إلا أن يقول، «أنا لا أعرف»، أعنى أن يكون لا أدرياً.

ولوضع الحق فى نصابه أعترف أن بعض أساتذتى كانوا متدينين إلى حد بعيد، وكانت الكنيسة التي نتردد عليها يوم الأحد على مضض تكتظ بالوعاظ الممتازين، ومع ذلك كان ربط الأسباب بالمسببات وتحرير عقولنا هو هدفنا الأسمى. فإذا الطلبة ينقسمون قسمين: أولهما غبىٌ أحمق لا يهتم كثيراً بما يقوله الأساتذة، وبمعنى آخر لا يستوعب ما يتلقاه، وثانيهما متفتق الذهن يسعى مجداً وراء الحقيقة، فكلما زاد غباء الطالب بقيت عقيدته ثابتة لا تتزعزع فى زاوية محكمة الإغلاق لا تتسرب إليها نفحات الدراسة التي يتلقاها، وكلما كان مقياس ذكائه^(١) عالياً نفّض عن نفسه غبار العقيدة، ولجأ إلى التحليل الصادق سعياً وراء الحقيقة.

(١) Intelligence Quotient.

ولما تخرجت فى هذه الجامعة بعد أن نلت شهادة «فى بيتا كابا»^(١) كنت ملحدا عنيفا مقتنعا تمام الاقتناع بالحادى والاستعداد لاقتناع غيرى به، ومضيت على مدى العشرين سنة التالية أسرف فى احتقار التعاليم الكنسية مؤمنا بأن الدين هو ملجأ العقول الخاملة.

ومن هنا يتضح أن علم النفس الحديث وحده القائم على أساس الرياضيات والأرقام، والذي يجرى تطبيقه على البشر لا على الورق، هو الذى قلب آرائى ومبادئى رأسا على عقب دون أن أشعر بالتطور الذى حل بى على امتداد فترة طويلة.

وهنا لا يلزم التحذير من الخط بين هذا العلم وبين التحليل النفسى الذى أدى إلى ظهور نظريات تأملية لا يمكن تماماً الجزم بصحتها كلها، كالتعبير عن الذات والقمع والأحلام والعقل الباطن والليبدو^(٢) وعقدة النقص والتربية التقدمية إلخ... وما أقل ما يعرفه الناس عن علم النفس العلمى الذى بلغت دقته الدرجة التى بلغت الكيمياء والطبيعة منذ قرن من الزمان، وبرغم أنهم سمعوا عن اختبار الذكاء أو مقياس الذكاء، إلا أن القليلين منهم هم الذين يدركون أن هناك ما يربو

(١) Phi Beta Kappa هو اسم أقدم مؤسسة صحفية للأدب اليونانى تأسست عام ١٧٧٦ شعارها، الفلسفة دليل الحياة، وهى لا تعدو الآن أن تكون منظمة شرفية فقدت قيمتها الاجتماعية وصار اسمها الآن يمنح كدرجة علمية للطلبة الممتازين المتفوقين - (المترجم).

(٢) Libido أى الطاقة الجنسية فى الانسان قصد بها فرويد الحرمان الجنسى أو الجانب العقلانى للفرية الجنسية، لكن يورج توسع فى معنى التعبير وأطلقه بصفة عامة على الطاقة الحيوية بأسرها - (المترجم).

على ١٠.٠٠٠ اختبار نفسى اجراها علماء النفس، وأن معظم هذه الاختبارات مستخدمة الآن فى الحياة العامة. والقليلون ايضا يعلمون أن مؤسسة روكفلر قد وهبت جماعة من علماء النفس نصف مليون دولار لاكتشاف اختبارات القدرة على التعاون المستخدمة الآن بمعظم المدارس. وقد قضى اساتذة علم النفس فى جامعة مينيسوتا خمس سنوات فى بحث متواصل حتى اهتموا إلى استنباط ثلاثة اختبارات لقياس مدى كفاية المرء الآلية، واستعداده الطبيعى لاستخدام الاجهزة الآلية، أنفقت فيها مائة ألف دولار تبرع بها مجمع الأبحاث الوطنى وغيره من المؤسسات.

ويكاد الجمهور الذى ينفق ملايين الدولارات على دراسة الموسيقى لا يعرف شيئا كذلك عن دقة اختبار سيشور لاكتشاف المواهب الموسيقية الفطرية فى الإنسان، وقد توصل إلى هذا الاختبار بعد بحث مجهد دام خمسة وعشرين عاما، بمعاونة عدد من علماء النفس المساعدين. وقليلون أيضا هم الذين سمعوا عن الجهود الجبارة التى بذلها أمثال ودورث وثيرستون والبورت وولز وروت وبرنرويتز وغيرهم فى مجال الشخصية وحدها. وهكذا ظهر تحسن ملحوظ فى القدرة على تفهم الشخصية والارتقاء بها بواسطة الاختبارات المتقدمة الذكر واستخدامها فى علاج المرضى بالعيادات الطبية. هذا الفرع من علم النفس هو الذى أدت مكتشفاته إلى تبديل معتقداتى الدينية، وهى - كما سبق أن أوضحت - تختلف عن

تلك النظريات النفسية الجذابة الشائعة بين الناس، كما أنني قد قدمت فى هذا المجال من علم النفس العلمى الكثير من التجارب التى حازت القبول، وأما مكتشفاتى التى سيرد ذكرها فيما بعد فلم تكن ممكنة التحقيق بدون تلك التجارب العلمية التى قام بها غيرى من العلماء النفسيين، وأما كون النتائج المستخلصة من هذه الدراسات تؤيد بل تطابق بعض المعتقدات الدينية الأساسية فهذا ما سيلمسه القارئ.

وقد طُبقت مكتشفات علم النفس تطبيقاً واسع النطاق على معظم المشكلات الإنسانية، فقد أجرت مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك اختباراً نفسياً على مئات الألاف من الرجال والنساء المتعطلين . وفى ضوء هذه الاختبارات أمكن توجيه كل منهم إلى المهنة المناسبة وإلى التدريب المطلوب له حتى يصير لائقاً لهذه المهنة.

وفى كثير من الأحيان كان هذا التوجيه يستند إلى المشكلات والعقد المكتشفة فى شخصية كل منهم، والتى تكون عادة السبب الأساسى فى تعطلهم. وقد تكلفت هذه العملية نفقات باهظة، تبرعت بمعظمها مؤسسة كارنيجى وجمعية مساعدة العمال العاطلين بمدينة نيويورك. ولما كنت قد اخترت مستشاراً خاصاً لهذا المشروع ونيطبى وضع الخطط ومراقبة الدراسات الإحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس ممن أجرى عليهم الاختبار، فقد أجريت عليهم مايقرب من مائة ألف اختباراً نفسياً، وأعددت تقريراً شخصياً شاملاً لكل فرد منهم.

وفى هذا الوقت بالذات بدأ إدراكى لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان يتسلل إلى وجدانى، ووجدت من نفسى استعدادا لمضاهاة تجاربى السابقة على مرضاى، بالنتائج الباهرة التى تمخضت عنها تلك الاختبارات التى توليت الإشراف عليها، فإذا بنا نستخلص من هذه الاختبارات نتيجة هامة، - وإن لم تنتشر فى التقرير النهائى - هى أن كل من يعتنق ديناً أو يتردد على دار للعبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أول لا يزال أية عبادة.

وهكذا لم تكن رجعتى إلى الدين رجعة الضال الذى اهتدى إلى الدين الحنيف، أعنى أن هذه الرجعة لم يصاحبها شعور متوقد أو حالة وجدانية، لكنها كانت رجعة عن طريق العقل فحسب لسوء الحظ. ولا أظن أن كافة المتدينين يقرون هذه العودة، حتى أنا نفسى لا أعتقد أنها الطريقة المثلى، فمفهومى عن الدين ينطوى على بضع معتقدات لا تؤيدها مذاهب دينية معينة، كما يطرح بعض الآراء التى تراها مذاهب معينة جوهرية. إذن.. فما هو الدين؟

الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة، هذه القوة هى قوة الله، مدبر الكون، خالق السماوات، وهو الاقتناع بالدستور الخلقى الإلهى الذى سنّه الله فى كتبه المتعاقبة، واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية التى هى أسمى فى مرماها من العلوم كلها مجتمعة، والقيم الخلقية التى هى أقوى فى أساسها من نظرية العقل أو السببية السالفة الذكر. فأنا مثلاً أؤمن بصدق رواية مولد السيد

المسيح، غير أن تصديقي لهذه الرواية ليس نتيجة لمقارنة عقيدتي الدينية بغيرها من العقائد، ولكنه إيمان خالص جاء في أعقاب اهتدائي إلى المزايا السوية في ديني، الذي سبق أن نبذته حين كنت عاجزا عن اكتشاف ما ينطوى عليه من خير. وكثيرا ما كنت أحث مرضاى من الكاثوليك ليكونوا أشد كثة، لاسيما فى مسألة الاعتراف التى أراها طريقة فريدة فى فائدتها النفسية. وكنت أشجع مرضاى من غير المسيحيين على التردد على معابدهم ومنشأتهم الدينية. كنت أنحو هذا النحو على الدوام على أساس مطالب الأفراد وضرورة استخدام الوسائل الممكنة فى هذا السبيل.

ومن هنا يرى القارئ أن عودتى إلى الدين كأحد أفراد المجتمع ليست بذات أهمية فى حد ذاتها، إنما المهم هو مكتشفات علم النفس العلمى الحديث التى كانت السبب فى هذا التحول. وبالرغم من المزايا العظيمة التى أسبغتها العلوم الطبيعية على المجتمع البشرى سواء فى إعانتة على إطالة العمر أم على توفير سبل الراحة، أم تخفيف آلام الأمراض، أم على حشد الحياة بمهينات الترفيه والسعادة، أم على تعميم فرص التعليم، فلن تجد أى دليل على أن الناس قد أصبحوا أوفر سعادة، أو أن الأسر قد صارت أشد ارتباطا، أو أن الحكومات والدوائر السياسية قد باتت أكثر حكمة وتعتلا، أو أن الأمم قد أضحت أكثر تجنباً للحروب. إن الدليل الملموس يقودنا إلى الاعتقاد بعكس هذه النتيجة، فعلى سبيل المثال فاق عدد الشعوب والجنود التى شاركت فى القتال بين عامى ٣٩ و ١٩٤٥ أى رقم سجلته الحروب منذ خلق هذا الكون.

وبينما العالم كله يتلظى بجحيم هذا الأتون الملتهب، كانت الولايات المتحدة تعاني من الاضرابات وحرب الطبقات والصراع الدنيء للوصول إلى كراسي الحكم، كما كانت تعاني من تفكك عرى الأسرة الأمريكية وانفصام الروابط الزوجية من جراء حوادث الطلاق العديدة التي سجلتها المحاكم. وقد ثبت خلال عام ١٩٣٨ أن ٤٧٪ من أسرة المستشفيات بالولايات المتحدة كانت تشغلها حالات عقلية. ومثل هذه الحالات هي التي تبين مدى الإخفاق الذي لحق المجتمع الأمريكي، وإن كنا نلمس آثار هذا الإخفاق وأعراضه في استمرار السعى الحثيث للعثور على ترياق السعادة والهناء، حتى ليكاد عصرنا الذي نعيش فيه يتميز بأنه عصر البحث عن السعادة.

وإذا كنت سأتناول بعض هذه المساعي بالبحث فيما بعد في فصلي «الحياة الوفيرة» و «التدبير الاجتماعي» إلا أني لن أحيث عن الدور الذي يلعبه عالم النفس في مثل هذه الأحوال وحسبي أن أجلو معناها النفسى بالنسبة إلى أفراد المجتمع.

لقد أدت دراستي العميقة للأفراد إلى رؤية ذلك القبس المضيء من نور الهداية. وسواء كان أمل الإنسان هو الحصول على الوظيفة اللائقة أم الأمن الاقتصادي أم الأطمئنان الاجتماعي أم السعادة الزوجية، فلن يعم الرخاء إلا إذا حارب الناس أسلوب الحياة الراهنة والمجتمع الحالي حريا لا هوادة فيها، توعد جذوتها عدة من المثل العليا العملية الصادقة.

فالدين الذي أتكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء، لكنه سلاح الأقوياء، فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها، لافريستها وعبدها الخانع.

الفصل الثانى

لماذا أتردد على المعبد؟

«من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب»

(الشورى ٢٠)

«من وجد حياته يضيعها، ومن اضحَ حياته من اجلى بجدها،

(انجيل متى ١٠ : ٣٩)

أخذت أحتَ غيرى من وقت لآخر على الاختلاف إلى الكنيسة بعد أن وجدت نفسى مواظبا على التردد عليها. ويحسن بى أن أتوقف قليلا لاسأل نفسى عن السبب الحقيقى الذى دعانى إلى ذلك.

الحقيقة أننى أختلف إلى الكنيسة لأدرب نفسى على التضحية بما تهواه وقبول ما تبغضه: فذهابى إليها يحرمنى من نوم لذيذ فى أضحى أيام الأحاد - وهى الفرصة الفريدة التى تسنح مرة كل أسبوع للاستمتاع برفاد طويل - ولو أنى لم أذهب إلى الكنيسة لكنت مستلقياً على فراشى أطالع صحف الصباح. وأذهب إليها لأنى أدرك قدر السرور الذى سيغمر والدىَ المسنَّين إذا علما بذهابى، وأعلم مدى غبطة حموى إذا وقع بصرهما على فى بهو الكنيسة. وهناك أيضاً، سأضطر إلى كبت مشاعرى فأقابل بل أصفح قوماً قد لا أميل إلى

معظمهم. وأذهب إليها أيضاً لأنى إذا تخلفت ظفر أولادى بعذر
قوى يبررّ تغييبهم عن دروس الدين، ولأنى توصلت إلى أن ثمة
واجبات ثقيلة على النفس ينبغى على أن أؤديها صاغراً.
وأذهب كذلك لأنى قد أخالف الواعظ رأيه، ومع ذلك أرغم
نفسى على الإصغاء إلى موعظته، ولأن بعض خاصة أصدقائى
ممن يحيطون علماً بكل دقائق حياتى يعتبروننى مرانياً، لأننى
لا أصدق مبادئ هذه الكنيسة، أو غيرها. والخلاصة أننى أتردد
على الكنيسة لأنى سوقن تماماً أن زهابى سيفيد برغم كراهيتى
الشنيذة للذهاب.

تناولت حياتى الخاصة بالبحث والتنقيب لعلى أكتشف تلك
البذور التى تنمو فتحيل حياة البشر تعاسة وشقاء، فلما
اهتديت إليها بعد جهد جهيد فى أعماقى، وجدت أنها لم تعد
بعد مجرد بذور واهنة ضعيفة، بل قد صارت أعشاباً بريّة
ضارة، جاء أمر استئصالها متأخراً، وإن لم يكن شديد
التأخير. فالاعتقاد بأن مجرد التردد على المعابد هو الحل
العملى لمشكلات الحياة الذى يستحوذ به المرء على كأس
السعادة، قد أصبح بإجماع الآراء فكرة بالية عتيقة. وقد أثرت
الخوض فى سرد تفاصيل لا طائل وراءها قبل البدء فى حديثى

(١) يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب،
ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) البقرة ١٧٧. (المترجم).
ويقول سبحانه وتعالى أيضاً: (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى
والله غنى حميد): البقرة ٢٦٣. (المترجم).

لسببين، أولهما أن العبادات التي يؤديها المرء ما هي إلا وجه واحد من فرائض الدين المتعددة^(١) فقد جاء في العهد الجديد: «وبالأعمال أكمل الإيمان، إن الإيمان بدون أعمال ميت».

وقد صارحنى عدد جم من الناس قائلين: لا تظننا نشك في وجود الخالق، بل نحن نؤمن به وبقدرته جل وعلا، لكنه إيمان من نوع جديد لم يأت عن طريق ترديد الخلف قول السلف، فكلنا يمقت الكنيسة ويتجنبها لما تثيره فينا نظرياتها ومبادئها بل ورجالها من النفور والإشمئزاز، فكنت أوميء برأسى علامة الموافقة على هذه الاعترافات لأنها تؤيد مبادئنا مطلقاً، وتبرر نفورى من الكنيسة. وقد أدركت الآن، أن هذا المقت والنفور من الكنيسة يشبه إلى حد بعيد شعور الكراهية نفسه الذى يحسه المرء إزاء ظروف الحياة وأحوالها المختلفة، فمرضى ينشدون السعادة الزوجية مثلاً دون أن يناضلوا فى سبيل تحقيقها، ويؤمنون بكفايتهم وقدرتهم لكنهم لا يستسيغون الكد والعناد اللازمين لمن يبغى شأناً عظيماً ويصبو إلى التفوق فى أى ضرب من ضروب الحياة.

أما السبب الثانى: فهو أن الاتجاه السائد الآن فى دوائر علم النفس الحديث، يؤكد أنه ليس للسعادة من سبيل غير العمل والكد والنشاط، ويستهجى معظم الآراء النظرية القديمة، كالتأمل الباطنى، فقد جاء وقت - مازال قائماً إلى حد ما -

(١) يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله وباليوم الآخر» (البقرة ١٧٧). ويقول سبحانه وتعالى أيضاً: «قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حميد» (البقرة ٢٦٣).

اعتقد فيه بعض الأطباء الذين يزاولون قشور مهنة علم النفس، أن المريض يمكنه شفاء نفسه عن طريق مناقشة - فى جلسات أسبوعية أو يومية مدة عام كامل - رغباته المكبوتة ومخاوفه، والشحنة الجنسية بجهازه العقلى، وعقدتى التعلق بالأب والام، والاسباب الموعزة إليه بكبت غرائزه.

ولا انكر أن بعض هذه المحاولات نالت نجاحاً غير منكور، وأنا شخصياً أعرف سيدة كانت تشك فى حبها لزوجها، فأمضت عاماً كاملاً تواظب على زيارة المحلل النفسى ثلاث مرات أسبوعياً حتى اقتنعت تماماً بصدق شعورها نحو زوجها.

وقد اتضح الآن بالتجربة أن أية وسيلة - بغض النظر عن سخفها أو مناقضتها للمنطق العلمى - قد تعين أحيانا على شفاء بعض الناس، وهذه الوسائل عديدة، فمنها التحليل النفسى، والتنجيم، وقراءة الكف، والتحليل الخلقى، وعلم الفراسة، وطريقة الدكتور كويه^(١) وغيرها من آلاف النظريات شبه العلمية التى تتردد بين أن وآخر.

ولكن أى ثمن تكلفه أمثال هذه الوسائل؟ وإلى أى حد يبلغ ضررها؟ وكم فريسة وقعت فى حبالها؟
طبيعى أننا لا نملك الإجابة عن هذه الأسئلة لأن العادة لم تجر على الاحتفاظ بوثائق لتسجيل الإخفاق. وليستبشر الناس

(١) الدكتور «إميل كويه» طبيب فرنسى، وهو صاحب نظرية الإيحاء الذاتى الشهيرة، وخلصتها إمكان شفاء المريض لنفسه من خلال الإيحاء لنفسه بقدرته على التخلص مما أصابه.

فقد بدأ الاتجاه الجديد فى علم النفس الذى يدعو إلى العمل والنشاط ويحذر من الانزلاق فى طرق التأمل الباطنى والتحليل النفسى يغزو الدوائر والحلقات الطبية.

وإليك دليلاً طريفاً تلمسه عند مدخل كلية «برنستون» حيث تحمل عارضة المدخل حكمه سقراط الخالدة: «اعرف نفسك» مدونة بحروف يونانية. فقد قيل إن شخصاً ما - ولا بد أن يكون ذكياً ثاقب الفكر - قد خط بالطباشير خطأ طويلاً فوق هذه الحكمة وكتب تحتها: «هذب نفسك».

هذه العبارة الأخيرة هى التى تلخص كل مكتشفات علم النفس الحديثة التى تقول بأنه لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجحة^(١) أو الخلق القويم^(٢) عن طريق التأمل الباطنى بل عن طريق تدريب النفس، أى تهذيبها والتحكم فيها، والسيطرة عليها. فكما أن عازف البيانولن يجيد عزف معقدات الموسيقى إلا بالمران الدائم سنين متعاقبة، كذلك الإنسان لن يجيد فن الحياة إلا بالتدريب المتواصل على الآلات التى تكون فى مجموعها هذا الفن. والقارئ يعلم عن يقين أن قضاء ساعة واحدة فى التأمل والتفكير كفيل بظهور كمية من الأفكار لا يمكن تحقيقها لساعات طوال بل لشهور بأكملها من العمل الدائم.

وهكذا ترى أن مكتشفات علوم الطبيعة البشرية الحديثة تؤيد بل تؤكد الدعوة إلى طيب الأعمال وجليل المثل الخلقية

(١) الشخصية هى مدى استعداد المرء لتحويل قدرته وطاقته إلى مآثر وعادات تكسبه حب الناس.

(٢) الأخلاق هى القدرة على مواجهة الحقائق ولا تكمل الأخلاق إلا بتدريب النفس.

التي جاءت على لسان المسيح منذ حوالى ألفى عام. ولا إخال
أحدا ينكر اتفاق المعنى بين عبارة: «هذب نفسك» ، وقوله عليه
السلام:؟ إن الإيمان بدون أعمال ميت».

وإننى لأجد نفسى على وشك الخروج عن موضوع قصتى
التي أحاول أن أبين فيها كيف أعادت تجارىي، التي هى وليدة
الخبرة بمشكلات الناس وأحوالهم عن كئيب، كنز الإيمان الثمين
إلى قلبى المجدب.

وقد تخيرت الحالات التي سأعرضها الآن من بين الحالات
الخاصة التي مرت بمرضاى حتى يمكن تطبيقها على أنفسنا
بسهولة ، ذلك أن الكثير منها يمثل مواقف شائعة بيننا فى
الحياة، حتى نكاد نلمس أنها تطابق المواقف والحالات التي
وقعت لمعارفنا بل لأنفسنا، والتي تصور الأخطاء العامة التي
تكون مصدر المتاعب لإحساساتنا ومشاعرنا.

وتحضرنى الآن إحدى هذه الحالات التي ما زلت أذكر
تفاصيلها لغرابة المحادثة التليفونية التي سبقتها. إنها حالة
سيدة شابة لا يزيد سنها على ستة وعشرين عاما تتمتع بجمال
خلاب وفتنة رائعة تأسرك لأول وهلة، جاءتنى قائلة:

«أنا امرأة تعسة يا سيدى، لأنى عجزت عن كسب الأصدقاء
والإحتفاظ بهم، لاسيما الرجال منهم. ولقد تعرفت على
الكثيرين فأظهروا نحوى من ضروب العطف الصادق والميل
الشديد ما يجلب عن الوصف. وكنت أتلقى منهم بسرود
الدعوات إلى الحفلات أو النزهة ولكن ما إن ينتهى اللقاء حتى

يختفى صاحبها. وبقيني أن الخطأ لابد أن يكون من ناحيتي،
لأنى عندما أنفرد بأحدهم أشعر بعجزى عن مقابلة وده بمثله
وأخفق فى الترويح عنه، وأعوقه حتى عن الكلام بصراحة. وأنا
أعمل سكرتيرة بأحدى المؤسسات الشهيرة منذ ست سنوات،
فليس ثمة مجال إذن كى أفترض فى نفسى الشذوذ أو الجنون
ولكنى كلما فكرت فى هذا الأمر زاد قلقى وشعرت بالمرارة
والشقاء».

وبدراستى لأحوالها فيما بعد وجدتها تعاني نفس الصعوبة
فى اكتساب صديقاتها الإناث، واتضح لى كراهيتها الشديدة
لغشيان المجتمعات، وعلمت أنها تعرف الرقص وإن لمست
نفورها من ألعاب الورق كالبريدج مثلاً، وأنها تتردد على
الكنيسة دون أن يكون لها نصيب فى نشاطها، وبرغم معرفتها
لمعظم زميلاتنا فى العمل إلا أنها تفضل تناول طعامها على
انفراد. وقد أدهشنى منها اعتقادها بأن معظم موظفى المكتب
الذى تعمل به، وجلّ أقاربها إنما هم قوم عاديون وأقل منها
ذكاء بل أخط مستوى ولذلك لم تكن تأبه لهم، ولا تعيرهم من
اهتمامها ولو قدراً يسيراً، فكانت تصم أذنها عن دعواتهم،
ويدهى أنها صادفت من الناس - وإن كانوا قلة - من كانت
تتحرق شوقاً إلى التعرف عليهم ومصادقتهم، ولكنها أخفقت
فى بلوغ ما تتمنى، لأنها كانت عاجزة عن فهم كنه الصداقة،
ومن ثم أخفقت أيضاً فى اجتذاب هذه الجمهرة القليلة، وبذلك
كانت الفرص السانحة أمامها لاكتساب الأصدقاء تكاد تكون
معدومة.

أما رأيي الذي انتهيت إليه عن هذه الحالة فسيثير دهشة أولئك الذين يرجعون المصدر الأساسي لهذه المشكلة، إما إلى الشحنة الجنسية من الجهاز العقلي «لبيدو» وإما إلى عقدة التعلق بالأب أو الأم، وإما إلى عقدة الشعور بالنقص. فالواقع أن هذه السيدة الشابة كانت قد اعتادت منذ زمن بعيد ألا تعمل إلا ما يروقها فقط وأن تتجنب ما لا تميل إليه، ومن هنا بدأت نواة عقدها الحقيقية تنمو، فإذا أقام أحد معارفها حفلاً لا يروقها، فهي إما أن تعتذر عن الذهاب وإما لا تشاركهم لهوهم إذا لبثت الدعوة ولم تكن تميل إلى هذا اللون من اللهو. كما كانت تشترط في الشاب الذي يسألها مصاحبتة إلى دار السينما ألا تقل ثقافته وميوله الأدبية عن ثقافتها إن لم يكن يفوقها. وهكذا خلقت لنفسها الأسباب التي تنأى بها عن دائرة المجتمع، فأخذت الدعوات الموجهة إليها تتناقص شيئاً فشيئاً.

ولذلك نصحتها بتلبية أية دعوة توجه إليها على مدى الأسابيع الستة التالية، على أن تعود لتنتهي إلى نتيجة تجربتها. والواقع أن هذه النصيحة كانت تناسب حالتها تمام الملاءمة، فأقنعتها بأن سر إخفاقها مع الناس الذين تميل نحوهم، راجع إلى عجزها عن منح صداقتها لمن لا تميل إليهم، وأن مشكلتها لا تحتاج إلى التحليل أو مداومة البحث وراء المخاوف والعقد المكبوتة بالعقل الباطن. ولكي أبسط لها الموقف أفهمتها أن المناقشات المتداولة بيني وبينها لن تقدم أو تؤخر، فما أنا بساحر ولا أحتفظ بعقاير أو أقراص نفسية تستطيع شفاءها، ثم إنها لا تشكو من التهاب الزائدة الدودية أو من دمل خبيث يقتضى أن استخدم مبضعي، فالامر جد مختلف عن هذا

وذاك، فكما سبق أن كدّت واجتهدت لاكتساب المهارة فى فن الاختزال، فعليها بالمثل أن تكد وتجتهد حتى تتقن فن كسب الأصدقاء وهذا أمر لن يتأتى إلا بالتغاضى عن هفوات الغير وقبولها عن رضاء، وتحمل المتاعب التى يسببها هذا المسلك، فإن هى اتبعت مشورتى فى الاسابيع الستة التالية أمكننى انتشالها مما ترزح فيه، وإن لم تصغ إلى قولى فلن تجد فى علم النفس كله ما يُعينها .

ومرت أيام ثلاثة وإذا بها تنادينى تليفونيا متساعلة: «هل تعنى حقا ما قلته لى بصدد قبولى أية دعوة توجّه إلى؟».

فأجبتها: «بل أعنى كل حرف قلته، ولكن لم السؤال؟»

قالت: «أمامى دعوة إلى العشاء ثم إلى السينما من أحد الأصدقاء ولكنى مترددة فى قبولها».

فانفجرت فيها صائحا: «بالله لم؟ أهو مجرم؟ هل هو طريد العدالة؟ هل يضرب أمه؟ أيرأس احدى العصابات؟ امتعطل هو؟»

وكان جوابها عن كل هذه الأسئلة بالنفي. قلت: «اذن ما عيبه؟» فأخذت تشرح لى وجهة نظرها مدعية أنه دونها ثقافة، وأن أسلوبه فى الحديث ركيك لا يعجبها، ثم أضافت أنه مجرد عامل يشتغل فى اصلاح السيارات، كما أن سلوكه تشوبه فظاظة واضحة.

فرددت عليها قائلا: «اذن اعملى ما بوسعك هذه الليلة لإسعاد هذا الفتى، ولن تخسرى شيئا إذا حاولت أن تكونى

زميلة مسلية هذه المرة، وستفيدين حتما من هذه التجربة التي ستعينك في المرات القادمة. اعتبريها تضحية منك اذا شئت، ولكن تأكدي أن القدرة على كسب الأصدقاء والاحتفاظ بهم لن تأتي عن غير هذا الطريق».

هذه الحالة تكشف عن حقيقة هامة، هي أن الإنسان يعجز عن اختيار الأصدقاء اذا لم يتعلم كيف يكسبهم. فهذه السيدة ترفعت عن مصادقة من هم دونها لأنها غالت في تقدير نفسها، وهي وإن كانت تفوق غيرها في كثير من الأمور، إلا أنها دون الجميع فيما يختص بفن الصداقة. وبدهى أن عجزها عن اجتذاب من تحبه راجع لاختفاقها في اكتساب من لا تحب.

وهذا بلا شك اتجاه أناني لن ينجم عنه غير اختفاء عاطفة الحب النبيلة، ونمو خصال البغض والكرهية. ودليل ذلك ما يردده الناس من وقت لآخر، فيقول أحدهم: «أنا أعلم تماما أن الكثيرين ممن حولي ذوو خلال طيبة، ولكني لا أخالط الا القليل منهم». ثم يبدأ يبرر مسلكه منتحلا شتى الأسباب والأعذار، متجاهلا أن المتعة ليست هي مصاحبة هذه القلة، ولكنها الدأب المستمر والسعى المتواصل لمضاعفة عددها.

وقد ثبت بالبرهان القاطع أن من قصر معاملته على من يحبهم نحسب، يحاول دائما تلمس الأسباب التي تبرر كراهته لمن يعجز عن كسب صداقتهم، ثم إن محاولة التقليل من شأن الغير ويخسه حقه عادة ماتتولد عن عجز المرء عن أن ينال ثقة هؤلاء الغير، فبقدر إخفاقنا مع الناس تزداد حدة النقد فينا

محاولين التنقيب والبحث عن عيوبهم وأخطائهم، لأن أراغنا وأفكارنا رهن بنوع عاداتنا، فاذا ساءت خسرتنا وإذا سلمت سلمنا.

وهناك حالة أخرى لرجل فى الثامنة والثلاثين من عمره جاعنى يقول: «تكاد وظيفتى تدفعنى دفعاً نحو الجنون، فأنا أعمل منذ عشر سنوات فى متجر متواضع كمسجل للمبيعات، وإن كنت أقوم بتنسيق البضائع المعروضة على الجمهور، وأقدم يد المساعدة أثناء حركة البيع والشراء. ومع أن رئيسى رجل له مكانته واحترامه، إلا إننى لا أشعر نحوه شعوراً طيباً، ولشد ما أمقت اشرافه الدائم على طوال التسنين العشرة السابقة. فلم يمنحنى البتة أية سلطة أباشرها أو أى مسئولية أتحمّلها. وهذا ما يقض مضجعى ويحزّ فى نفسى، والواقع أن مرتبى لا بأس له، ولكنى أتوق إلى وظيفة أتفانى فيها، ووظيفة تهين لى فرصة التعبير عن ذاتى، وتمنحنى الوقت الذى أتمكن فيه من تنمية روابطى الاجتماعية، وتجعلنى أشعر بعد ترك هذا العالم أنى ساهمت إلى حد ما فى اصلاح حاله وإسعاد من فيه».

لم يشكُ هذا الرجل قط من ضيق ذات اليد، لكنه وجد فى وظيفته والمحيط الذى يعيش وسطه من المثالب والنقائص ما جعله يقسو فى نقدهما.

وبمراجعة الملاحظات التى دونتها أثناء حديثه اكتشفت المعلومات التالية:

«إنه اعزب. ويعيش وحيداً بمنزله، ويتناول طعامه عادة بالخارج. وله أخ يكبره وأختان تصغرانه ووالد على قيد الحياة يعيشون كلهم على مدى قريب منه، ولكنه لا يلقاهم إلا نادراً. وهوايته الوحيدة هي المطالعة بحجرتها. وهو ذو ذوق رفيع فى انتقاء كتبه ومجلاته مثل كتاب «كيف تجعل الحياة تستحق العناء» تأليف فيريانكس . لا يميل إلى لعب البريدج أو الورق. حاول أن يتعلم لعبة البنج بنج ثم تركها غير أسف.. ويمضى أمسياته ويوم عطلته عادة فى المطالعة. ولم يمارس الألعاب الرياضية بالمدارس الثانوية أو بالجامعة التى أمضى فيها سنتين. ولا يجد من وقته متسعاً يزاول فيه بعض الألعاب ولا يعنى بمشاهدة المباريات الرياضية. ولا يتردد على الكنيسة وغير مشترك فى جمعية الشبان المسيحيين أو أية مؤسسة اجتماعية. ولا يدخن ، ولا يتناول الخمر.

تكاد هذه الملاحظات تجمل تاريخ حياة هذا الرجل، لنخرج منها بنتيجة هي: أن «السلبية» هي مصدر متاعبه سواء اكانت راجعة اليه شخصياً أم إلى بيئته.

وقد لاحظت فيما بعد، أنى تعمدت تدوين عبارة تفوه بها لفرط اهتمامى بمغزاها إذ قال: «يبدو لى أن ضيق وقتى هو الذى حرمنى من أى نشاط خارجى.

فلنر. هل لهذا الاعتراف نصيب من الصحة؟

هذا رجل تنحصر أفكاره فى الالتحاق بعمل يملك عليه مشاعره ليتفانى فيه. ولكن سلوكه إن دل على شئ فعلى تفانيه

الزائد فى سبيل ذاته، لدرجة لا يستطيع معها التنازل عن رغباته، لأنه لا يخطو خطوة إلا فى الطريق الذى يستسغيه، ويحجم عن ولوج أى مشروع لا يروقه، فتراه يفضل مطالعة سير الناس وتراجمهم دون مسابرتهم، وتلذذ له دراسة النظم الاجتماعية القائمة دون اقحام نفسه فى خضمها، ويقراً بل يردد المواعظ والحكم الداعية الى تهذيب النفس على حين يبتعد البعد كله عن أوجه النشاط الذى توصى به. أراد إصلاح العالم وتوفير أسباب السعادة لمن فيه، لكنه حبس نفسه فى عالم ضيق من صنع يده وأفقه المحدود، عالم لا ارتباط بينه وبين عالماً. ولما أجرى اختبار الذكاء على هذا الرجل كشف عن أنه أشد ذكاء من ٥٥ ٪ من طلبة الجامعات كما أنه عد ضمن أنكى ١٠ ٪ من مجموع الشعب الأمريكى.

أما الاختبار الذى أجرى لمعرفة شخصيته البارزة فأظهر أنه:

«أكثر انطواء»^(١) وبالتالي أشد اضطراباً فى عواطفه من ٨٧ ٪ من الشبان الذكور. وأكثر تراخياً أو تقاعساً فى علاقاته الاجتماعية من ٨١ ٪ من الشبان الذكور. وأشد اكتفاءً بذاته واستقلالاً من ٦٧ ٪ من الشبان الذكور.

كانت نتيجة هذين الاختبارين ايجابية بالنسبة لنفوره الاجتماعى ومداومة تحليل نفسه بنفسه، وسليته بالنسبة لعادة

(١) الشخص المنطوى Introvert أو الفردى أو المنكمش الشخصية وعكسه الشخص المنبسط Extrovert أو الاجتماعى أو المتمد الشخصية - (المترجم).

ضبط النفس والتحكم فيها. فاكتفاؤه الذاتى واستقلاله يواكب ان
عالمه الخاص الذى شيده لنفسه. وسأحاول الآن تفسير هذا
الاختبار وبيان أهميته، غير متناس شرح نظيرتى انطواء
الشخصية وانبساطها.

فليست مشكلة هذا الرجل هى محاولة الاهتداء الى عمل
يستنفذ كل جهوده ونشاطه، ولكنها الافتقار الى أسلوب جديد
فى حياته يتجه فيه بكل قواه اتجاهاً خارجياً، ويبذل فيه جهوده
كلها فى سبيل الجماعة. فهو فى مسيس الحاجة لقضاء
أمسياته مع معارفه يلعب البلياردو أو الورق أو بعض الألعاب
المسلية، ويتردد على دور اللهو والحانات. ولا غرابة فيما أقول،
فإن أدنا العلاقات الاجتماعية وأحطها يتطلب منا إنكار الذات
والحدب على الغير. حقاً إنى ضريت فيما ذكرت أسوأ المثل
الكفيلة بإصلاحه، وكان الأجدر والأولى أن ينتمى إلى جمعية
دينية أو ناد سياسى أو اجتماعى حيث يجد فى نشاطه ما يملأ
وقته شيئاً فشيئاً.

وأكاد أجزم أن الترياق الذى قد تشير به مدارس الفكر
الحديثة هو مبادرة هذا الرجل بعقد قرانه ومن ثم تكوين أسرة.
فإن الزواج والتوافق الجنسى الصحيح ما فتنا أمرين
جوهرين على مر العصور لتحقيق السعادة، بالرغم من أننى
أعرف من بين أصدقائى من لم يتزوج فحسب بل يتمتع بسعادة
زوجية لا مثل لها، مع ذلك تجده فى قرارة نفسه تعساً شقيماً.

وهذا شاب يعمل أستاذاً بإحدى الجامعات، ولا يجد للحياة
طعماً الا فى هناء زوجته وبسمات طفليه الصغيرين ابترنى

قائلاً: «إن مواجهتي لطلبتي هي أشق الواجبات على نفسي وأصعبها، وهذه الصعوبة تتفاقم على مرّ الأيام لأنى أكاد أدفع نفسي دفْعاً نحو قاعة المحاضرات، بعد أن أحشد كل ما فى جعبتي من ارادة. فإذا تخطيت هذه العقبة وبدأت ألقى محاضرتى، توترت أعصابى وتهيج شعورى، وغالباً ما أفقد إتزانى إزاء أتفه الهفوات الصادرة من أى طالب، فأنفجر صاخبا بدل أن أحاول كبت ما يخالجنى، حتى بتُّ أشعر بازدياء الطلبة لى. وكثيراً ما ترتجف ركبتي خلال المحاضرة أو يسيل العرق البارد من جسدى بغزارة. والواقع أننى عاجز عن كبح جماح نفسى أكثر من ذلك. وقبل أن أفكر فى محاولة الفرار من طلبتى رأيت أن ألجأ اليك. ثم إنى إذا رجعت الى بيتى وجلست أعد محاضراتى أخفقت فى حصر ذهنى فيما أقوم به».

هذه كلها إحساسات عادية قد مرت بأغلبنا، فإما أن نقبلها على علائها حتى لا نتخلف عن موكب الحياة، وإما أن نهزمها فنتخلص منها، مثال ذلك حالنا عندما نفكر فى إلقاء خطاب لأول مرة فى حفل عام. غير أن حالة هذا الأستاذ الأخير قد تفاقمت وزاد اضطراب مشاعره، ولعل القارئ قد فطن إلى مشابهة حالته لحالة سلفه الموظف، إلا أن هناك اختلافين جديرين بالذكر، الأول جاء فى سياق حديثه، وهو حياته الزوجية الهانئة، والثانى عزمه منذ الصغر على أن يغدو أستاذاً بالجامعة. ثم نيله فعلاً ما تمنى وهو فى ريعان شبابه، بيد أنه دفع الثمن غالياً من كنز سعادته، فبماذا تفسر ذلك؟

بدأ الفتى كفاحه فى سبيل الوصول الى بغيته لا ترى عيناه هدفاً دونه، فإزاح جانباً كل نشاط من شأنه إعاقته عن بلوغ غايته، فتراه يروغ من مصاحبة الناس منذ طفولته متخلصاً من الاجتماع بهم، وتجده حذراً لا يخطر فى سلك الجماعات الرياضية، ولا ينتمى إلى الجمعيات المدرسية، متجنباً النوادي والكنائس، لا يجد من وقته متسعاً للتزاور مع الناس، فلما بلغ مرحلة الشباب لم يلمس فى نفسه ميلاً لمزاولة هذه العادة الاجتماعية ولم تجتذبه أية هواية يقضى فيها أوقات فراغه. ومع أن هذا الفتى قد بلغ هدفه وعقد على زوجة تتوافر فيها كل الصفات الاجتماعية المطلوبة، إلا أنه يفتقر إلى المهارة والتجارب اللازمة لحسن تصريف الأمور مع الناس. فإذا نجحت زوجته مرة فى الخروج به، أو دعت بعض الأصدقاء إلى بيتها، ظل الفتى يعانى اضطراباً عنيفاً أياماً لشعوره بعجزه الاجتماعى، فقل خروجه وندرت زيارة الناس له. ولما تزاحمت عليه الأفكار واضطربت مشاعره، حاول التخلص من عذابه بوقف وقته على الدراسة والمطالعة، فلم يغنه ذلك شيئاً، وأخذ يوماً بعد يوم يفقد القدرة على التركيز، فيستلقى الساعات الطوال ساهماً شاردأ مفكراً حتى لم يعد يملك آخر الأمر القدرة على التفكير، فإذا سألته فيم أمضيت أمسيتك؟ قال: «لا شئ، أقوم من هنا لأقعد هناك، أو أناقش بعض الأمور مع زوجتى».

وعندما أجريت لهذا الشاب اختبار صفات الشخصية، تبين أنه أكثر انطواءً وبالتالي أشد اضطراباً في عواطفه من ٩٧ ٪ من الشبان الذكور، وأكثر تراخياً أو تقاعساً عن ٩٤ ٪ من الشبان الذكور من ناحية القدرة على تبادل العلاقات الاجتماعية.

وأظن الكثير من القراء يتلهف شوقاً إلى معرفة الطريقة التي لجأت إليها لحل عقدة هذا الفتى والقضاء على ما يشكو منه. وهأنذا أحاول إرواء ظمئهم بقدر ما يمكنني، لأن الغرض من هذا الكتاب ليس إظهار قدرة المعالج النفسى وسيطرته، أو تناول الطريقة التي يعالج بها طبيب معين مرضاه، بل عرض ظروف الحياة التي تؤدي بنا إلى الوقوع فى برائن مثل هذه المشكلات. وأنا أعتقد أن الإلمام بالوسيلة التي يمكن بها تجنب الشقاء الناجم عن الشخصية المسوخة المشوهة أفضل من معرفة تلك الوسائل البطيئة التي قد تؤدي أحياناً إلى الشفاء.

وأكاد أجزم بأن أحد هذين الرجلين لم تنزل به كارثة أدت به إلى الالتجاء إلى، ولم يسبق أن أصيب أحدهما بحالة انهيار عصبى كما يردد معظم الأطباء ومزاو لو طب الأمراض النفسية عادة، وأؤكد أن كليهما يعانى النتيجة الحتمية لإهمال دام مدى العمر للكثير من قيم الحياة الجوهرية، ومهما كانت أسباب ذلك، سواء من تأثير الوالدين أو الوسط الموبوء أو تصرفاتهما الخاصة عن عمد، فقد أدى عجزهما عن تكوين بعض العادات الاجتماعية الأساسية الى جعل الحياة جحيماً لا يطاق، وبمعنى آخر كانا يحصدان ما زرعاً منذ سنين.

أخذت مثل هذه الحالات المتعددة وغيرها من الحالات المماثلة والأخف وطأة تدفع بالتدرج إلى ذاكرتى آية من آيات العهد الجديد كنت أظن أنى نسيته، تقول: « من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها.. فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها» (١).

ولكن لم أذكر هذه الآية بالذات؛ لأن مطابقة المعنى فى هذه الآية للحالتين السالفتى الذكر تكاد لا تحتاج الى تدليل، فكلاهما صاحب مبدأ واحد هو مبدأ الأثرة أى عمل ما يروق لهما فحسب، والبعد عما لا يميلان إليه، فكانت النتيجة أن أخذت قابليتهما لأى عمل تخبو وتضعف شيئاً فشيئاً، حتى جاء وقت فقدا فيه لذة الاستمتاع بما كان يحلو لهما، لأنه أضحى نخرأ مريراً.

إن كلمتى «من أجلى» الواردتين فى الآية السابقة لهما معنى ومغزى خاص، فهما من الوجهة النفسية الخالصة يمثلان مجموعة من القيم الخلقية تفوق قيم الفرد العادى حتى تكاد تجرفها وتقوم مقامها، فقد تكون رغبتنا الخاصة هى إتيان عمل معين، وإذا بنا نصادف دستوراً سامياً، أو مثلاً أعلى أو عقيدة نبيلة، تدفعنا إلى التضحية بهذه الرغبة وولوج مسلك أقل امتاعاً وأشدّ وعورة (٢).

فالزهد، أى تضحية الإنسان بميوله ونزعاته الخاصة، هو بلا مرأى غرة الأديان السماوية، فنحن إذا راعينا مبدأ الزهد

(١) إنجيل متى ١٠، ٣٩، ١٦ : ٢٥.

(٢) قال تعالى «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم» البقرة ٢١٨.

والتقشف فى أسلوب حياتنا ارتقى بنا إلى حياة مليئة وفيرة، لا حياة قاحلة مجدبة كتلك التى نحيها، لأن تضحية الإنسان برغباته وميوله المباشرة فى سبيل تحقيق مبدأ سام لا يجنى من ورائه فائدة، يؤدى إلى النمو المضطرد لعاطفة المحبة لدى الإنسان، وتزايد ميوله الخيرة. وإنى لأعتقد أن أهم ما فى مكتشفات علم النفس الحديث هو إثباتها علمياً أن سعادة الإنسان وقدرته على إدراك كنه نفسه لن يتأتيا بغير تضحية النفس فى سبيل الغير، وتعويد المرء نفسه الخضوع لنظم خاصة.

فالإنسان بطبعه أنانى ينقاد وراء دوافعه المباشرة، وقد أثبتت اختبارات الصفات الشخصية، والتجارب الطبية لعلماء النفس أن الاتجاه فى هذا الطريق يؤدى إلى انكماش الشخصية، واضطراب العواطف، والعصاب، والتخبط الفكري، والشقاء وسوء النظام، وأنه لا غنى للمرء عن الدين أو ما يقوم مقامه، على أن يسمو هذا البديل الأخير عن مستوى الفرد والجماعات، حتى يتسنى قهر هذه الدوافع الأنانية وقمعها فى الإنسان العادى، وقيادته نحو حياة أكثر خصباً وأوفر متعة.

ولست أنكر أن ثمة حوافز أخرى غير الدين قد تطبع المرء بطابعها، وتسوقه إلى التضحية بسعادته التى يرفل فيها فى سبيل غرض سام، لكنك لن تجد غير الدين وحده ينطوى على هذا المبدأ كأساس منطقى للحياة العادية الهانئة.

كان ادراكى لهذه الحقيقة - بعد فوات الأوان - هو السبب
فى عودتى إلى التردد على الكنيسة التى أذهب إليها - ولا مانع
من التكرار - لأن ذهابى معناه طرح رغباتى وميولى جانباً حتى
أفعل ما لا أستسيغه، وأؤدى من الواجبات ما لا ترتاح إليه
نفسى. وأخيراً فإنى أمنت بالله حين وجدت أن البشر يعجز
عن إدراك مدى أهميته الكامنة إذا لم يؤمن بقوةٍ تفوقه وتعلوه..

الفصل الثالث

سبيل السعادة (١)

«اجاب يسوع، وقال له الحق، الحق اقول لك، إن كان احد لا يولد من فوق، لا يقدر ان يرى ملكوت الله»

(يوحنا ٣: ٣٣)

«الروح هو الذى يحيا، اما الجسد فلا يفيد شيئا»

(يوحنا ٦٠ - ٦٣)

بعد أن غادرني أحد زوارى، ألقىت نظرة على الملاحظات التي دونتها عنه فى سجلى الخاص، فاكتشفت فى هذا الشخص المثل الأعلى للإنسان المتزن، بل للبطل المجهول فى ميدانى الصراع العقلى والنضال الخلقى.

كان الرجل عاطلا غير موفور الذكاء، ليس له نصيب كبير من الوسامة، كما لم يكن ناجحا من الوجهة الاجتماعية، ولا يتجاوز رصيد مدخراته فى أحد المصارف بضع مئات من الدولارات. ومع ذلك كان حائزا لمجموعة من العادات والعقائد التي لا تفسر سر سكينته فحسب، بل تعتبر ضمانا لسعادته المقبلة. وكانت هذه الملاحظات هي:

السن: ثمان وعشرون سنة، متزوج منذ عامين.

الأبناء: له طفل عمره ستة أشهر.

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» (المائدة ١٠٥)

المظهر: حسن

التعليم: قضى بالجامعة سنة كانت نتيجته فيها جيدة.

المواد المحببة إلى نفسه: الرياضيات والرسم والطبيعة.

المذهب الدينى: بابوى وعضو بالكنيسة، حرّ فى عقائده،

شديد التمييز بين الحق والباطل.

الوظيفة: عاطل، اشتغل كاتباً للحسابات ثلاث سنوات ثم

مديراً لمحل ببدال مدة أربع سنوات، ويأمل فى الاشتغال

بالأعمال الهندسية.

الالعب التى يميل إليها: البيزبول، وكرة السلة، والمسابقات

والرقص، ولعب الورق.

الأندية والنشاط الاجتماعى: مشترك بنادى الاتحاد

الاجتماعى، ونادى الكنيسة وعضو بفريق الرماية.

شخصيته: أظهر اختبار برونرويتز لقياس صفات

الشخصية أنه شخصية منبسطة، متزن الانفعال والعاطفة، وأن

اكتفاه الذاتى ونضوجه الاجتماعى فوق المتوسط.

والحقيقة أن إعجابى بهذا الرجل لا يرجع إلى أنه يجيد

التصويب بالبندقية فى حين أننى لا أستطيع ذلك، ولا أنه بابوى

المذهب وأنا لست كذلك، إنما يرجع ذلك الإعجاب إلى توافر

عدد كبير من أوجه النشاط الاجتماعى فى هذا الرجل جعلنى

أرى فيه المثل الأعلى للرجل المتزن.

فإذا قارنا بين هذا الرجل وبين الرجلين السالفي الذكر في الفصل السابق، لوجدنا أن الرجلين يشتغلان في حين أن هذا الرجل متعطل، وأنهما شقيان مضطربا العاطفة، بينما هو سعيد متزن العاطفة رغم قلقه المتواصل للحصول على وظيفة، وهما لا يثقان في أنفسهما وبالتالي في العالم كله، بينما هو ممتلئ الثقة بنفسه وبمن حوله برغم الظروف العصيبة التي أحاطت به إبان فترة البطالة الطويلة. كان كل منهما يفتقر إلى التزود بعقيدة دينية وإلى الإلمام بقيم الحياة، وبمعنى آخر بينما كانا يسبحان مع تيار منطقيهما، كان هو بالرغم من أنه يطفو على صفحة بحر الفوضى الاقتصادية مرتبطا مع العالم برباط عميق وهو مطمئن النفس ثابت الجنان.

إن لمْ هذا التباين العجيب بين رجل لم يحقق من مطامعه إلا النزر اليسير، وبين هذين الرجلين اللذين بلغا مرادهما ويفوقانه معرفة وذكاء؟

الإجابة العلمية عن هذا السؤال هي أن كلا من هذين الرجلين ذو شخصية منكشمة أو طبيعة منطوية، أما الآخر فذو شخصية منبسطة كَوْن في نفسه عددا من العادات والالتزامات السوية تواكب مجريات الحياة، وبلغه أخرى أن الأولين قد كَوْنَا عادات الأثرة والأنانية، على حين نَمَى الثاني في نفسه عادات الإيثار وإنكار الذات.

وقد تخبط الناس كثيرا فى استعمالهم لكلمتى منطو ومنبسط. والواقع أن كليهما مقياس للأناية، أعنى الأناية المتطرفة فى حالة الانطواء والأناية الهيئة فى حالة الانبساط. فالمنطوى أو الأناى يتحاشى مقابلة الناس، أما المنبسط فيسعى نحوهم ويحاول التعرف إليهم. المنطوى أو الفردى يتهرب من التزامات الجمعيات والأندية ومطالبها، أما المنبسط اجتماعى فيتقبلها بصدر رحب. وقد يجول بفكر المنطوى اتيان عمل طيب، لكن المنبسط يأتيه بالفعل. ولا يجد الأول متسعا لعمل ما لا يحبه، ولكن الثانى يتلمس الحظوظ الخالية ليقوم به. ويخشى الشخص الفردى ارتكاب الأخطاء، ومن ثم يفرغ من إرباك نفسه فلا يقدم على أية مجازفة، لكن الاجتماعى - ولو أنه يخشى الوقوع فى الخطأ بالمثل - إلا أنه يعمل ويثابر فيخطئ ويعانى ويتعلم، لكنه يكتسب فى النهاية المهارة فيما مارسه وتتولد فيه الثقة بالنفس.

وكثيرا ما كنت أقول لمرضى: من الأفضل أن يرتكبوا سبع أخطاء، بدل أن يرتكبوا خطأ واحدا. فبينما يتردد المنطوى قبل أن يمضى فى مشروع ما لشدة شعوره بنقصه، تجد المنبسط غير مبال بارتكاب الأخطاء لأنه موقن أنه لن يبلغ ما يرجوه من مكانة عن غير هذا الطريق. وعندما يفكر المنطوى فى الإقدام على عمل ما أو فى الإحجام عنه، فإن ذلك يرجع إلى ما سيعود عليه شخصيا، فى حين يرجع ذلك عند المنبسط لما سيعود على أبويه أو أصدقائه أو معارفه. الأول يقرأ عن الحب والمغامرات، والثانى يسعى إليهما. والفردى شديد النقد لأصدقائه، ولا يفتأ

ينقب عن ماضيهم. الاجتماعى يعمل على اكتساب أصدقاء جدد ومن ثم مضاعفة خبرته وتجاربه. وتبعا للون القاتم الذى يتخذه تفكير الأول تبدو له الحياة سقيمة مملّة، بينما يعمل الثانى وكل أفكاره «طازجة». متجددة ويلجأ المنطوى إلى أحلام اليقظة محاولا الفرار من حقائق الحياة المرّة والعيش فى عالم من نسج خياله، فإذا أرغمته ظروف الحياة الضرورية على مواجهة بعض الظروف القاسية تخاذل وشرع يشكو نقصه وعدم استعداده للصمود أمام هذه الظروف ومواجهة الحقائق.

تلك صورة رسمتها لما أدعوه الانبساط والانطواء، أو الاجتماعية والفردية، وقد تجد هناك من تنطبق عليه الصفة الأولى تماما، أو من تنطبق عليه الصفة الثانية تمام الانطباق. أما الأغلبية فليست هى بالمنطوية كلية، ولا هى بالانبسطة كلية^(١) وبمعنى آخر لا تتصف بالأنانية المطلقة ولا بإنكار الذات الكامل.

أما العامل الحاسم فيما يتصل بسعادة الأفراد ومدى نجاحهم فى مستقبلهم فهو الكيفية التى يوجهون بها هذه الصفات، والطريقة التى يتبعونها للتسامى بها على مرّ الزمان، فالانطواء والانبساط بلا نزاع عادتان واقعتان تحت سيطرة المرء، ولا غرابة فى أن يتساءل الفرد منا: ترى كيف سأبدو

Ambivert (١)

بعد عشر سنوات من الآن؟ أم كون أشد انطواء أم أكثر انبساطاً؟

ويصل بعض الناس إلى الشخصية الممتدة المنبسطة عن طريق تنمية مجموعة من العادات المتزنة منذ الطفولة، حتى يبلغوا الشخصية المثلى التي سبق الحديث عنها، ولا أعنى بذلك شخصية رجل ذى منصب خطير أو رجل ناجح فى الحياة، ولكننى أعنى شخصية رجل سعيد وعضو نافع بالمجتمع. وقد يخفق بعض الناس فى تكوين العادات الانبساطية فى صغرهم، فإذا هم يعانون من الانطواء فى سن العشرين أو الثلاثين، وإن كان من الجائز أن يتحوّلوا إلى الانبساطية فيما بعد، إذا افلح الواحد منهم فى إجادة مهنة تضطره إلى مخالطة الناس، ومن ثم ترفعه إلى مصاف الاجتماعيين.

وقد صادفت بحكم مهنتى الكثير من الفنانين والموسيقيين والحرفيين ممن كانوا على درجة كبيرة الانطواء، وإذا بهم ينقلبون أشد انبساطاً من الإنسان العادى لسبب بسيط، هو تركيزهم جهدهم كله فى سبيل اكتساب المهارة اللازمة لإتقان حرفتهم، فإذا حققوا هذه المهارة اكتسبوا الثقة بأنفسهم وبقدرتهم على اجتياز العقبات بما اكتسبوه من قدرة وموهبة، فتجدهم يسارعون إلى الاندماج فى تيار اجتماعى لم يسبق لهم أن ارتادوه .

وكثيراً ما يقال إن الشخص الفردي أشد استجابة وأرهم حساً لكل ما هو رقيق من قيم الحياة على العكس من الاجتماعى، وأن معظم الخيالات والأحلام وأضخم الأفكار الذهنية وأسلم المحاولات الفنية تراود النوع الأول أكثر مما تراود الثانى. والواقع أن هذا الادعاء ليس له ما يؤيده علمياً، بل إن العلم الحديث يثبت ما هو نقيض ذلك.

وقد أجريت أخيراً اختبارات لقياس صفات الشخصية لحوالى ثلاثين فنانياً من الفنانين البارزين والمتوسطى الشهرة، فاتضح لى أنهم جميعاً أشد انبساطاً من المستوى العادى للجماهير. فنحن غالباً ما نتصور أن الفنان ذو عاطفة مضطربة وأنه يصبح عبداً لثورات انفعالية بين آن وآخر، غير أن هذا الاختبار أثبت عكس ذلك. فالفنان الناجح أكثر اتزاناً فى انفعالاته وعاطفته من معظم الناس.

ومن الواضح أن الموسيقى الذى يبذل ست ساعات من وقته يومياً فى التدريب والمران كى يوفق إلى جعل أنغامه متألقة مع باقى فرقته لتنساب فى أذان المستمعين سحراً أسراً ثم يمضى فى كفاحه - حتى أمام التثبيط والسخرية اللاذعة - لا بد أن يكون أشد انبساطاً من المستوى العادى، حائزاً لعادات الاتزان العاطفى.

أما الفنان الذى يؤثر الانطواء فهو عادة فنان فاشل، ليس على استعداد للتضحية بلذته ودوافعه الغريزية فى سبيل التفوق الذى لن يأتيه إلا عن طريق التدريب والمران الدءوب

والمنافسة الحامية الوطيس. ومثل هؤلاء تبقى مطامعهم أحلاماً
وأوهاماً، فلا هم يحسنون إلى غيرهم ولا إلى أنفسهم.

ولن يتحقق امتداد الشخصية إلا لمن كان متزناً العاطفية
والانفعال متمتعاً بمجموعة من العادات السوية. وأية ذلك أنه
قد جاعى والدان بآبئهما الذى كان يدرس الهندسة ويوجد فيها
صعوبة لم يكن يتوقعها. وقد أظهرت الاختبارات التى أجريتها
عليه أن مستوى ذكائه يفوق الحد الذى يتطلبه معهده. وبالتعمق
فى مناقشة الفتى، اتضح لى أنه يجد مشقة كبيرة فى مسابقة
زملائه فى «جماعة الإخاء» التى تم انتخابه فيها أخيراً، وأنه
يفكر جدياً فى الانسحاب منها.

ويسؤاله عن مدى نشاط إخوانه فى الجماعة أجاب بأن
نشاط بعضهم غير مستساغ، أما البعض الآخر فلا غبار على
نشاطهم. وفهمت منه أن لعبتى البنج وبنج والبريدج هما أحب
الألعاب إلى قلوب الجماعة.

فسألته: «إذا طلب إخوانك منك الاشتراك معهم فى لعبة
البنج وبنج فبم تجيبهم؟».

قال: «ألتمس لنفسى العذر بأنى لاعب غير حاذق».

ثم أردف محتداً: «فأنا لا أحذق شيئاً».

وتبين لى أنه كان يعود فى الحال إلى غرفته بالمنزل،
ويشعر فى استذكار دروسه، وبعد حصر ذهنه بضع دقائق

فيما يطالعه، يتجه فكره فجاً إلى البنج بنج، وفشله في لعبها وسخف الطريقة التي رفض بها دعوة زملائه للعبها، ثم يتخيل حرج موقفه لو كان قد لبى الدعوة، ثم ينتقل تفكيره إلى الوقت السعيد الذي يمضيه إخوانه وقتنذ في اللعب، ثم يحاول أن يعود بتفكيره مرة أخرى إلى ما يستذكره وإذا بصحكات اللاعبين وصخبهم يصل إلى مسامعه خارقاً أذنيه، فيشرع في التماس الأعدار لنفسه. ويقدر ما ينخرط في التفكير يشعر بالتعاسة، وتزداد الصعوبة في حصر انتباهه فيما يدرسه، فلا يكاد يتم في ساعة ما كان يحققه التركيز التام في خمس عشرة دقيقة.

وقد اعترف لي أن هذه هي حالته بالضبط، ثم سألتني النصيحة. فقلت له: «العب البنج بنج ولا ضرورة لكي تحذقها. العبها مع خيرة اللاعبين إذا سألك ذلك، واخترك لاعبا ضعيفا إذا لم يسألك اللاعبون المهرة ملاعبتهم. واعقد العزم على أن تتحمل ما يصادفك من مصاعب مهما حدث. لا تتوقف عن اللعب ولن يمضى وقت طويل حتى تكتشف من هو أضعف منك، وستجد نفسك فيما بعد قد فزت أكثر من مرة على لاعب ماهر، وستلمس حتما لذة ما في اللعب، وستعود إلى دراستك بعد ذلك دون الحاجة إلى تلمس الأعدار التي تشتت تركيز انتباهك. فبعد أن تبذل مجهودك في نشاط اجتماعي ما تشبع فيه بعض رغباتك، لن تجد ما يحول دون إجادة ما تقوم به بعدئذ من الأعمال. ولعبة البنج بنج في حد ذاتها ركن تافه من

أركان الحياة فى الكليات، الا ان التعليم الجامعى لا يتم
ببونها او بدون مثيلاتها من مسرات اللهو فى الحياة.

ومع ان هذا الفتى لم يكن يحصل على درجات متفوقة فى
دروسه، إلا انى نصحته بأن يقلل من الاستذكار ويكثر من
اللعب، فإن إخفاقه فى تكوين بعض العادات الاجتماعية، وفى
إجادة بعض الألعاب الرياضية التى يحتاج إليها لمجابهة بعض
مطالب البيئة التى يعيش فيها، لم يجعله تعسا فحسب بل
عاجزا عن حصر انتباهه الجاد فى دراسته.

وكان بوسع الفتى بالطبع أن ينسحب من جماعته وينعزل
مع بعض الطلبة أمثاله ، فإن أسرع وأسهل الوسائل للتخلص
من أى صراع عاطفى هو تجنب مسبباته، أى الانسحاب أمام
حقائق الحياة وحصر المرء نفسه فى الدائرة الضيقة التى
يقيمها حول نفسه. مثل هذا الحل لا يعدو أن يكون حلا
مؤقتا، ولن يؤدي إلا إلى انكماش المرء.. وهذا الاجراء هو
بالضبط عملية الانطواء التى يؤدي استمرارها آخر الأمر إلى
ثورات عنيفة فى بركان الانفعال. ولم يكن هذا الفتى يمتلك من
مميزات الانبساط إلا قدر ضئيل، كما كان اضطرابه العاطفى
شديدا، وإن كان قد شرع أخيرا يواجه الحياة ويكوّن العادات
التي تساعده على اجتيازها بنجاح.

وأظن أننى وفقت إلى حد بعيد فى تفسير نظرية الانطواء
والاضطراب العاطفى والانفعال المترب عليها لهذا الفتى
ولغيره من طلبة الهندسة، بضرب مثل بسيط من علم الميكانيكا،

وخلاصته أنه إذا كانت العادات المختلفة اللازمة لإشباع رغبات الإنسان تستهلك الطاقة الناجمة عن الجسد البشرى المضطرب الانتظام، كان الإنسان ممتد الشخصية منبسطة، وبالتالي هادئاً ثابت الانفعال متزن العاطفة. أما إذا افتقر المرء إلى هذه العادات الهامة الضرورية كان مثلاً بنيانه البشرى كمثّل ماكينة سيارة تدور بسرعة برغم أن السيارة نفسها ثابتة لا تتحرك، إما لأن الطاقة الآلية لم تنتقل من الماكينة خلال صندوق تروس السرعة إلى عجلاتها، وإما لأن اشتباك التروس مع بعضها البعض داخل الصندوق مختل. حقا إن الماكينة جادة فى السير والدوران لكنه جهد ضائع، لأن السيارة لم تتحرك قيد أنملة فى الحالة الأولى، وإذا سارت فى الحالة الثانية فإنها تخطو متعثرة.

وكلنا، ينفعل من وقت لآخر لنفس هذا السبب، فإذا صادف أن قابلت شخصا، ولم تعرف ماذا تقول له، أو قلت له ما لا يصح قوله، تصاعد الدم إلى وجهك وشعرت بالارتباك. فهناك دائما فائض من الطاقة التى لم تُستنفد، أو من الطاقة التى أسئ استهلاكها. وكل فرد عادى عرضة لمثل هذه التهيجات الانفعالية التى تعين الإنسان وتساعد، لأنها تنبيه إلى ضرورة تنمية عادات أفضل أو اكتساب مهارة أعظم. وهى لن تؤدى إلى القلق الانفعالى الضار إلا إذا أذعن المرء للهزيمة، وتوقف عن إعادة الكرة والمحاولة مثنى وثلاث، وعندها يعجز عن اكتساب مهاره اللازمة لمجابهة مواقف الحياة المتباينة، والعادات الضرورية لمواجهتها.

وليست هذه وحدها السبب فى الاختلال العصبى، أو الهياج الانفعالى، أو القلق الزائد، أو فترات انقباض النفس المثبطة، ولكنها أكثرها شيوعا. وقليل هم من يعانون الاستهلاك المتزايد لطاقتهم، ولكن أغلبية الناس هى التى تعاني من الطاقة الفائضة، التى تظل كامنة دون الافصاح عنها أو يفصح عنها بطرق شاذة. فالشخص الأنانى هو من يقيم حول طاقته سياجا يختزنها فيه حبيسة، فتكون النتيجة أن يشكو تزايدها، أما غير الأنانى فيستنفد طاقته عن سعة فى شتى الاتجاهات، وبذا لا يترك غير فائض ضئيل من طاقته ليعالج به ضجره وتبرمه.

ولعل أحد المبادئ التى اختلف الناس فى تفسيرها هو ذلك النص الذى ورد بالعهد الجديد: «الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. قال له نيقوديموس^(١)، كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟ أجاب يسوع: الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله. المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح. لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق. الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتى ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من وُلد من الروح^(٢)».

(١) نيقوديموس رئيس اليهود - (المترجم).

(٢) إنجيل يوحنا ٢: ٢ - ٨.

فنظرية المعصية الأصلية^(١) والتأكيد على بعث الإنسان مرة أخرى، كانا دائما مما يحير الألباب. وقد ألفت دراسات علماء النفس ضوءا له أهميته على هذه النظرية. فنحن جميعاً - من الوجهة النفسية - قد وُكِّدنا منطويين أنانيين، ولن نصير منبسطين في غير أنانية إلا بمواصلة بعث أنفسنا من جديد، أعنى ذلك البعث الشاق للعادات والصفات الشخصية الجديدة.

ففي غضون سنى الطفولة المبكرة، وبتوجيه الوالدين، وبدون أن نشعر نكتسب عادات كثيرة. أما فيما بعد عندما نتقدم بنا السن، فلن يمكننا اكتساب هذه العادات إلا ونحن شاعرون بما نعمل، وإلا بعد بذل مجهود شاق. فالطفل يولد حزمة من طاقة غير منظمة، مثله كمثل آلة أو بنية مؤددة للقوى، فهو ينام ويأكل ويخترن الطاقة المتولدة فيه، لكنه لا يمتلك العادات التي يمكنه بها تحويل هذه الطاقة إلى أعمال نافعة. ومن ثم يتحتم علينا أداء جميع مطالبه، لأنه عاجز عن أن يؤدي لنفسه عملا، فهو يلوح بذراعيه دون أن يتحكم فيهما، ويتلوى بجسده ويثنيه، لكنه لا يخطو خطوة واحدة، ويحرك عينيه وإن كان لا يستطيع تثبيتهما على شيء. وبالتدرج يكتسب عادة القبض على الأدوات والامسك بها وتثبيت عينيه، ثم الزحف والسير والكلام والعدو والأكل وارتداء ثيابه والذهاب إلى المدرسة

(١) خطينة آدم «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فآزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه. إنه هو التواب الرحيم» (البقرة ٢٥، ٢٦، ٢٧).

والقراءة والكتابة إلى آخره. كل هذه الأعمال تمثل نماذج من العادات التي يتمكن الطفل بها أن يحول تدريجياً طاقته الطبيعية مثل وجبات طعامه الثلاث والإخلاء إلى النوم ليلاً إلى أعمال تستنفد طاقته. وهذه ألف باء عملية الانبساط أو امتداد الشخصية، فالطفل يجيد عادة تناول الطعام بالشوكة والسكين، الإجابة التي تؤهله لمشاركة غيره الطعام بأمان بعد ست سنوات من المran المتواصل المرهق لكل من الوالدين والطفل نفسه. ومن المحتمل أن يتعلم كيف يقول: «من فضلك وأشكرك» في فترة أقصر من السابقة. وبمرور الزمن يكتسب العادات التي تمكنه من مخالطة غيره من الأطفال، وتجنب الشجار وكسب الأصدقاء والمعارف، ثم يتعلم إحدى الألعاب، وغالباً ما يتقن لعبة أو أكثر من ألعاب التسلية أو المسابقات. وقد يكتسب عادة أداء واجباته المدرسية وزيارة أصدقائه ودعوتهم إلى منزله والتوجه إلى المعبد، كما قد ينمى في نفسه هواية ما، كعادة جمع طوابع البريد أو العزف على إحدى الآلات الموسيقية.

كل هذه العادات ومئات غيرها هي الطريق المؤدى إلى عملية الانبساط أعني تحويل طاقة المرء الداخلية إلى نشاط خارجي يهيئ، للمرء ضبط صلواته مع غيره في هذا العالم المضطرب النمو فهو ينتقل من صدر الأم الحنون وحدها إلى حياة الأسرة العطوف، إلى حياة مشحونة بالتحذيرات والتوجيهات من الوالدين: «إفعل هذا... ولا تفعل ذاك»، إلى الزوار، إلى المشاحنات مع أطفال الجيران، إلى المدرسة، إلى المدينة، إلى

مملكة الكتب، إلى السينما والراديو والتليفزيون، إلى ميدان الألعاب والمباريات، إلى الصلات الاجتماعية على وجه العموم، إلى الجامعة والوظيفة والزمالة والزواج ومسئولية الأسرة. كل هذه الآلاف من العادات التي نماها المرء لمجابهة هذه المواقف والظروف تمثل عملية الانبساط او بمعنى آخر عملية البعث من جديد.

فذلك الشاب الذي عددهُ مثلا أعلى قد اكتسب مجموعة شاملة من العادات التي تعالج المواقف الشائعة. وهو في الحقيقة لم يكتسب هذه العادات أو هذه البراعة بدون تضحية الكثير من ميوله في وقت من الأوقات، فكثيرا ما كان يحس رغبة قوية تدفعه إلى البقاء في بيته لقراءة كتاب ما، لكنه يتوجه برغم ذلك إلى النادي لأنها ليلة النادي الأسبوعية. وكثيرا ما كان يتحرق شوقا إلى الذهاب إلى السينما، وما إن يدعو أحد أصدقائه ليلاعبه البريدج حت يلبي دعوته ضاربا برغبته في الذهاب إلى السينما عرض الحائط. وكثيرا ما يكون في أشد الحاجة إلى الحديث مع صحابه في شأن من الشئون، لكنه يذهب إلى ساحة التدريب ليقضى ساعة أو بعض ساعة في تمرين شاق مجهد في كرة السلة أو الهوكي.

إن معظم أوجه النشاط التي يتمتع بها هذا الشاب الآن كثيرا ما كانت مصدر تنغيص ومكابدة له وقتا ما، لأنه لم يكن يجيدها أو يحذقها. لقد كانت تحركه مثل اجتماعية ودينية تجرفه بعيدا عن ملذاته وأهدافه. وقد أجابني عندما سألته عن

سبب عدم اتمامه التعليم الجامعى انه شعر ان أسرته باتت فى حاجة إلى معونته أكثر من احتياجها إلى علمه. ولما سألتها عما إذا كان يميل إلى إلقاء دروس دينية أيام الأحاد أجاب بأنه يحب الأطفال، غير أن مشقة اعداد الدروس والاستيقاظ مبكرا صباح الأحد قد حالا دون هذا النشاط.

اما المنطوى فقد درج فى حياته على اتخاذ أسلوب عكسي، أعنى أنه درج على التعبير عن ذاته فحسب. فهو لا يعمل إلا ما يطلو له عمله، فيعجز عن اكتساب العادات التى تؤدى إلى البراعة فى التعامل مع الناس. وتراه لا يرضى غير ذاته أولا ويقتصر طاقاته على تلبية رغباته فقط، فيخفق فى محاولته تعلم كيفية منح الغير بعض نفسه ووقته، وتكاد هذه الطاقة تغمره وتقضى عليه، ثم يكتشف أخيرا أن حصر انتباهه فى نفسه، وعمل الشئ الذى يروقه فحسب، وتجنب ما لا يروقه، ومحاولته تكييف حياته على هواه، لا تقوده إلى النجاح المنشود، ومن ثم يسيطر عليه الشعور بالعزلة والانفراد ويرى نفسه وقد انزلق إلى جحيم انفعالى شديد الوطأة. وفى محاولته تكييف حياته على طريقته الخاصة غالبا ما يفقد ما قد تنطوى عليه هذه الحياة من سعادة وهناء.

وبديهى أن التمدى فى هذه المهارة وذاك النشاط - أعنى البالغة فى الانبساط - له خطره أيضا ومع ذلك فخطر التطرف فى الانبساط أشد هونا من الاستغراق فى الانطواء، لأن الانبساط هو نتيجة العمل أو الحياة المترعة بالتجارب والنشاط، أما الانطواء فهو نتيجة أطراح النشاط وندرة التجارب.

وبناء على ذلك فالشخص المنبسط هو الذى يقاسى الكثير فى مبدأ الأمر، أما المنطوى فهو الذى يعانى فى النهاية.

وإن المسيح عيسى عليه السلام الذى يمثل لنا الحياة الخالية من الأنانية خير تمثيل، لهو المثل الأعلى لإنكار الذات. فلقد كان منبسطا إلى حد يتعذر على غيره بلوغه، وكان بلا نظير فى حسن علاقاته الاجتماعية، فلم يتردد فى قبول الماء من المرأة الواقفة إلى جوار البئر عندما علم أنها سامرية^(١)، ولم يحجم عن تبادل الحديث معها لأنها جاهلة لا تفهم لغته، ولم يقصر اهتمامه على من يؤمنون به فحسب، بل كان لا يتردد فى الحديث مع أى مخلوق سواء كان زاخيا جابى الضرائب، أم نيقوديموس رئيس اليهود أم أحد الفريسيين^(٢)، ولم يتأفف من مخاطبة الكسيح والمشوه والكفيف ويائع الخمر والموغلين فى الخطيئة، ولم يكن ينتظر حتى يدعوه الناس، بل كان يسبقهم فيدعوهم. وقبل أن يبعث بتلامذته وحواريه إلى أنحاء المعمورة حاملين رسالته مضى يلقنهم كيفية التقرب إلى الناس، فأوصاهم بالرقّة والوداعة كما أمرهم بالإقدام دون تردّد على فعل الخير.

وبالرغم من أنه كان يطمع فى الوصول بالبشر إلى أعلى مراتب الحياة، إلا أن حياته الخاصة كانت فى حقيقتها سلسلة

(١) فجأت امرأة من السامرة لتستقى ماء فقال لها يسوع: أعطيني ماء لأشرب.. فقالت له المرأة السامرية: كيف تطلب منى لتشرب وأنت يهودى، وأنا امرأة سامرية، لأن اليهود لا يعاملون السامريين، (يوحنا ٧١٣ - ٩ -).

(٢) الفريسيون علماء اليهود الذين كانوا يجادلون عيسى فى آرائه ومعتقداته ويناصبوه العداة.

من الصلات الاجتماعية المتينة الشاملة. فبينما كان يحاول أن
حث الناس على صالح الأعمال، كان أشد إبراكا من حواريه
لمطالب الناس المادية، وكان سريع الفهم والتقدير لوجهة نظر
الغير مع احتفاظه برأيه الخاص، فلم يزعجه اعتداء الصبية
عليه، ولم يزعزع كيانه استهانة الناس به. فكان يزور أولئك
الذين يزرون تعاليمه ويحيون الحياة التي ينقدها بدلا من
تجنبهم والانصراف عنهم.

ولم تكن الصفة الانبساطية أو صفة الإيثار في عيسى عليه
السلام مجرد حادث عرضى بل هي نتيجة حتمية للمثل العليا
التي كان يقدرها أكثر مما يقدر راحتها الشخصية بل وحياته،
فلقد كان مؤمنا بأن رسالته هي تحقيق إرادة من بعثه. كان
المحرك لأفعاله والدافع لتصرفاته عقيدة تُزرى بالعقبات المادية
والمعنوية التي اعترضته. فلم يكن قد سمع بعد عن الغدد التي
تأعب دوراً كبيراً في تشكيل الشخصية، أو عن التركيب
الجثمانى الوراثى الذى تتحمس له الدوائر الطبية الآن فتؤكد
أنه بالنسبة لكليهما يكون استعداد المرء للإصابة بهوس
المراهقة أو اضطراب الأعصاب أو الصرع أو البارانونيا^(١) فكان
يقول: «أما أنا فلست أدين أحدا، وإن كنت أنا أدين فدينونتى
حق، لأنى لست وحدى بل أنا والآب الذى أرسلنى».

هذا، هو مبدأ عيسى فى الحياة الذى كان فى جوهره
المقياس النفسى للحياة النشيطة السعيدة التى لا تكف عن
البذل فى سبيل الغير.

(١) جنون الهواجس الاضطهادية.

الفصل الرابع البلهاء عبيدو السببية

«الذين يؤمنون بالغيب...» «وعلى ربهم يتوكلون»

«قرآن كريم»

«أنا هو الطريق والحق والحياة»

«يوحنا ١٤:٦»

«وإما الإيمان فهو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى»

«الرسالة الى العبرانيين ١١:١»

«الحق اقول لكم، من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله»

«لوقا ١٨: ١٧»

عندما رأيت الناس يقصدوننى ظانين أننى الإله الذى يوفر لهم سبل السعادة ويقيم لهم صرح الهناء، بدأت أقدر قيمة الإله الحقيقى. وذلك فى الواقع هو الشعور الذى يدور بخلد كل رجال علم النفس والدين والأطباء الذين يفد إليهم الناس باسطين مشكلاتهم باغين حلها، اللهم إلا إذا بلغ غرور بعضهم بأنفسهم حدا يجعلهم يظنون أنفسهم فعلا آلهة!

أذكر حالة رجل قضى فى السجن حوالى عشرين عاما لاغتiale عشيق زوجته جاعنى قائلا:

«أريد أن أستفسر عما إذا كانت السنوات العديدة التى قضيتها فى السجن لها تأثير على عقلى، وهل تجعلنى غير

لائق للقيام بأى عمل؟ ولكى تكون على بينة من أمري، أقول لك
انى كنت مهندسا ذا وظيفة ثابتة، ولقد وفد هذا الرجل الى
بيتى فأحال هناءه تعاسة، ولذا قتلته متعمدا. واعترف لك أن
هذا العمل هو الاثم الوحيد الذى اقترفته فى حياتي، فأنا لم
ادخن أو أشرب الخمر أو أقامر، وقد أدى حسن سلوكى
بالسجن الى اطلاق سراحى قبل المدة المحكوم على بها بأربع
سنوات، أما أثناء وجودى بالسجن فكنت أعمل كل ما فى
وسعى كى أشغل ذهنى، وتعلمت الفرنسية والألمانية حتى
أجدهما ويمكننى الآن القراءة والكتابة بهاتين اللغتين، ولو أن
لهجتى غير سليمة تماما (وهنا أخذ يتحدث بهما قليلا حتى
يثبت صدق ما يقول)، فقد كنت موقنا أننى لن أنال خيرا فى
هذا المكان الموبوء إن لم أواظب بانتظام على دراسة شىء ما.
ثم إنى أملك الآن ثمانين دولارا علاوة على الخمسة والعشرين
دولارا التى أعطانيهما السجن حين غادرته، كنت قد ادخرتها
من العلاوة التى نتقاضاها لشراء طوابع البريد كل أسبوع،
فلقد توفيت زوجتى عقب دخولى السجن بستتين فلم أجد من
أراسله، وبدلا من إنفاق هذه الدريهمات القليلة فى شراء التبغ
والحلوى اقتصدتها وأود الآن الحصول على وظيفة كمهندس
إذا تيسر ذلك، غير أن القلق ينتابنى لأنى أخشى أن تكون
سنوات السجن الطويلة قد أحالنتى شخصا شاذاً غريب
الأطوار برغم الجهود التى واصلت بذلها للمحافظة على اتزانى
العقلى.

هذا هو السبب الذى دفعنى إلى الاختلاف إليك، راجيا أن تحكم بما اذا ما كنت لا أزال سليما معافى؟».

أخذت أجرى على هذا الرجل الاختبار تلو الاختبار، وانبريت أطمئنه وأبث فيه الثقة، وان كنت أشفق عليه وارثى له، لأنى كنت متأكدا من عدم كفاية هذه الاجراءات. فهذا الرجل يحاول بدء الحياة من جديد وسط موجة عنيفة من موجات البطالة الواسعة النطاق، فضلا عما ينوء به كاهله من ماض ملوث بجريمة وسنوات طوال بالسجن.

كان هذا الرجل فى أشد الحاجة لما هو أقوى من اعادة ثقته فى سلامة عقله بواسطة طبيب نفسى. كان فى مسيس الحاجة الى الايمان بمجموعة من المعتقدات أسمى فى قيمتها مما ألفه المجتمع من تجارب وتحامل واجحاف. كان يفتقر برغم اتزانه إلى شحنة من القوة تتجاوز قدراته. ورغم ذلك كان هذا الرجل طريد السجون أشد اتزاناً فى عاطفته وأكثر انبساطاً فى عاداته، وأشد جرأة اجتماعية من أغلب الناس الذين نصادفهم فى الحياة كل يوم. أولئك الذين يحبسون أنفسهم وطاقاتهم ونشاطهم كما لو كانوا قد قضى عليهم بالسجن الانفرادى، يجوبون الطرقات ويؤدون أعمالهم، وغالباً ما تجدهم يجيدون الموضوع الذى يميلون اليه، ويخوضون فيه بطلاقة وإسهاب، ومع ذلك تراهم يقدحون ذهنهم الضيق - ذلك الذهن الأنانى الذى لا يفكر الا فى نفسه - مفكرين حائرين قلقين، هادمين كل معتقد قد يقودهم إلى الخلاص والنجاة بأنفسهم، يسوقهم فى ذلك منطوق مخرب مدمر مكدود.

وهناك نموذج لحالة متطرفة، وإن كانت ذائعة الشيوع لرجل لا يعتقد في شيء ما. هو شخص منطوف فرّ منذ سنين من ممارسة تجارب الحياة، ويجد مشقة في مزاوله مهنته أو اتباع سبيل يهون عليه الحياة العادية، قال: «استغرقت هذه الحالة من تفكيرى الوقت الكثير، وتوسعت فى دراسة الكتب العلمية المتعلقة بعلم النفس، علنى اهتدى الى علاج لحالتى أو أعثر على ما ينبغى على عمله. وبرغم ذلك فكلما شرعت أفكر محاولا الوقوف على سبب ما أعانيه انتهى بى التفكير الى أن أسأل نفسى هذا السؤال: لم أعمل؟ ولم هذا الجهد الذى أبذله لتعليم طلبتى؟» فأننا لا أملك دليلا واحدا يثبت أن الموضوع الذى أدرسه يفيدهم أو يضرهم، ولكنى واثق أننى أضيع وقتهم سدى، وهم بالمثل يضيعون على وقتى. وإذا فرضت جدلا أن للمادة التى أدرسها قدرا من الأهمية فهناك غيرى من يمكنه أن يلقنهم لهم بالمثل، إن لم يكن يفوقنى... لم اجتماعى بغيرى من الناس ومواصلتى ربط صلاتى بهم؟ لم اشتراكى بالجمعيات؟ وكلما اهتديت إلى بعض الأسباب التى تدعو الى اتباع شيء ما، عثرت بالمثل على بعض الأسباب القوية التى تدعو إلى اطراحه والابتعاد عنه! إذن لم الكد والشقاء.. لم التعب والنصب؟ فحتى أسرتى يمكنها المضى وحدها فى غمار الحياة دون الحاجة إلى.

وأعتقد الآن أنك ستشير على بانتهاج مسلك قد يعيننى، لكنى لن أدعك تسترسل فى نصائحك، بل سأبادر بهدم الأسباب التى تبني عليها نظريتك، فربما نخرج منها بحجة منطقية تقلب الحجة التى ستدعيها رأسا على عقب.

كانت هذه اللحظة انتصارا باهرا لنظرية السببية على
المعتقدات والمبادئ والعواطف وعادات الحياة اليومية التي لا
نجد لها تفسيراً، فكان لزاماً على أن أجيبه دون خداع فقلت:

«إننى أوافقك كل الموافقة على ما تقول، ودعنى أصورك
على سبيل المثال عادة بسيطة لا يفكر معظم الكبار فى استكناه
أمرها، وذلك حتى لا تظن أن موافقتى لك هى على سبيل
المجاملة.

لم نتناول طعامنا بالشوكة والسكين؟ فإن استعمال الشوكة
والسكين عادة من العادات التى لن تجد لها سبباً. إن
استعمالها يزيد من إجراءات إعداد المائدة قبل تناول الغذاء
وإزالتها بعده، وظهور واجب جديد هو غسلها وتجفيفها فضلاً
عن أنها تعدّ مصدراً لانتقال العدوى من غيرنا إلينا، وتكلف
الآباء عناء ست سنوات فى تدريب أبنائهم على استخدامها
باتقان، فى حين أنه لو استخدم هذا المجهود فى شىء أنفع
لكان ذلك أفضل، أو على الأقل كان فى الإمكان توفير هذا
المجهود، فتناول الطعام باليدين والأصابع، تلك الأدوات التى
أتاحتها لنا الطبيعة، وسيلة فطرية يسيرة.

وبوسعك أن تأتى بحجج مشابهة تشجب بها كل مرحلة من
مراحل حياتنا، كما أن كل شخص له نصيب من الذكاء فى
مقدوره أن يفعل الشىء نفسه. وأنا لن أناقشك أو أحاول
إقناعك بالحجة، لكنى سأطرح عليك سؤالاً واحداً: «هل أنت

راض عن حالتك الراهنة؟ وهل تود أن تبقى كما أنت؟» فإذا كان جوابك بالإيجاب فليس لك عندي علاج. أما إذا أجبت بالنفى فقد أستطيع معاونتك، وقد تستطيع معاونة نفسك. فمثلا يمكننى القول بأن استخدام الشوكة والسكين عمل سليم لا لأن استخدامهما هو الطريقة الوحيدة المستساغة فحسب، بل لأنك ستحس نشوة لذيذة عندما تستخدمهما بمهارة كغيرك من الناس إذا ما شاركتهم الطعام. وبالمثل سأقترح عليك بضع نصائح لن تنفذها لمجرد أنها معقولة فحسب، بل لأنك إذا عملت بها وحذقتها رضيت عن نفسك.

مثل هذه الحالة العقلية شائعة بين المنطويين الذين اعتادوا استبدال العمل بالتأهل، والإيمان بالسببية، والعقيدة بالتحليل. والأمر اللافت للنظر أنك لا تلاحظ هذه الظاهرة إلا عند ذوى العقول الراجحة والاطلاع الواسع والثقافة الرفيعة.

يدير أحد علماء النفس الفرنسيين المشهورين مصحة لمتطرفى المنطويين والموفقين من المنبسطين الذين دبّ الإنهاك والكلل إلى عقولهم من جراء المبالغة فى استخدام هذه العقول. أما أسلوبه مع مرضاه فينحصر فى الآتى:

ينبغى بادئ ذى بدء أن يثق المريض فيه ثقة عمياء حتى يؤدي ما يطلبه منه فى الحال ودون تردد، فإذا ما خالف المريض الأوامر الصادرة إليه أو حاول مناقشتها طرد فى الحال.

ويصطحب الطبيب المريض الى حقل مجاور للمصحة، ويشير الى قطعة من الأرض طولها خمسون قدما وعرضها

ثلاثة، ثم يناول مريضه معولا ومجرفة ويأمره ان يحفر هذه المساحة من الأرض بارتفاعه. فيبدأ المريض الحفر يوما بعد يوم، وتزداد ساعات العمل، حتى تبلغ العشر يوميا.

وما ان ينتهى المريض من حفر المساحة المخصصة له وفق المقاييس المطلوبة حتى يأتى الطبيب ليتأكد من مطابقتها لتعليماته، وهنا يرنو الى مريضه قائلا بكل بساطة : «والآن عليك بملء الحفرة ثانية».

وقد ثبت أن انشغال المريض بعدة واجبات من هذا النوع الذى لا مبرر له غالبا ما يعيد اتزان قوى التسبب فى مجموع الشخصية، ويحول طاقة المرء وجهوده نحو الخارج، أعنى فى سبيل الغير لا فى سبيل نفسه.

فسعيد ذلك الذى يملك حقلا لا تنى الأعشاب الضارة تنمو فيه برغم ما يبذله من جهود فى اقتلاعها، وسعيدة هى المرأة التى ترعى أسرة وتعجز عن اشباع رغباتها على الدوام، أو التى عليها حياكة ثياب الأسرة برغم قيامها بكل الواجبات المنزلية، وسعداءهم أولئك الذين يؤدون من واجبات الحياة أثقلها سواء أكان ذلك بمحض اختيارهم أم على الرغم منهم، وسواء أكان هذا الواجب حفر الخنادق أم تنظيف الملابس والمنزل أم جمع طوابع البريد أم أشغال التطريز أم قيادة السيارات أم غسيل سراويل الأطفال، فالنتيجة واحدة.

وبين الفلاسفة والعلماء من يعتقد أن الحياة ليست تجربة تستند إلى المنطق أو على كل ما هو معقول، وأن الطبيعة لا يمكن تفسيرها بواسطة المعارف العلمية، فالناس لا يولدون في هذه الحياة بمحض اختيارهم أو لسبب يعرفونه ويدركونه، وهم يعيشون حياتهم على مزيج من الغريزة والمسببات اللا عقلانية أو الثابتة. وهم يعلمون النهاية وأنهم يمضون إلى الفناء ولكن دون أن يدرك منطقهم المحدد سبب هذه النهاية. فالعقل يعجز عن إيجاد حل لهذه المشكلات، علاوة على أنه لم يهيا لمثل هذا الضرب من التفكير، فالفكر ليس غاية في حد ذاته، ولكنه أداة يستخدمها الإنسان ليكيف نفسه مع قيم الحياة وأغراضها التي لا يمكن إدراك كنهها. فكما أن الأسنان قد خلقت للمضغ بها لا لمضغ نفسها، كذلك العقل قد وهب للتفكير في سواه لا للتفكير في استكناه أمره. فالعقل آلة نعيش بها لا لأجلها.

وليس هناك شك في أن الحضارة الغربية قد ألهمت العقل والفكر وجعلتهما غاية، فالسعى إلى المعرفة والعلم واتجاه نظمنا التعليمية، ينحوان إلى تعظيم شأن الفكر وتحطيم القيم الجوهرية وهو ما يدفع الناس إلى ضرورة حيازة هذا الفكر.

خلاصة القول إن هناك قوة تسيّر هذا الكون. ولكن كيف نشأت هذه القوة؟ سؤال حير الناس على مرّ العصور. وإجابة هذا السؤال هي أن القوة مفعول مدلول محسوس لا منظور. ولكن ماهى هذه القوة؟

طبيعى أنك تقطن منزلا يضاء بالكهرباء وتركب قطارا يسير بقوة الكهرباء، وتلتمس الدفء فى ظل مدفأة تدار بالكهرباء، فهل تعرف ماهى الكهرباء؟ هى قوة تعرف أثرها ولا تدرك كنهها. هذا مثال أسوقه إليك أيها القارئ حتى تدرك أن هناك أيضا قوى مدركة كالقوى الكهربائية والميكانيكية تتولد ونحس أثرها وندرك تفاعلاتها منطقيا بعقل قد هُيئ له مجال التثقيف فى أبواب معينة، فعرف كيف يوَلد القوى ويسيرها وينتفع بها. إذن فهناك قوى غير معلومة. الطبيب بطبه، والمهندس بفنه، والعالم بعلمه، كل أولئك يجيدون مهنتهم ولا يتعدونها الى سواها. فالطبيب لا يفقه الهندسة، والمهندس لا يشفى جراحا، كل فى أفقه لا يتجاوزه. فإن عرف الواحد منهم الكل فى فنه، فإن هذا الكل جزء من الكل الأسمى الذى هو أسرار الكون العظيم.

ومن هنا فنحن نسلم بأن العقل الجبار المثقف العارف بكل شىء، يفرض وجود مثل هذا الشخص الجاهل بجزء من أسرار الكون. إذن كيف يعرف هذا الجاهل، خالق الكون أو القدرة التى اعترفنا بوجودها فى وجود الكون؟ وإذا كنا لا نفهم طبيعة الحياة كلها فكيف يمكننا أن نتصور كنه قوة الله؟ إذن هذا الفاعل قادر، وعبقريته غير محدودة، لأن هذه العبقرية خلقت لنا عبقریات لم نفهم كيفية وجودها. ولكننا نعرف أن هذه القوة لا بد ذات بأس شديد وقدرة غالبة بحيث بلغ منتهاها هذا المبلغ السديد، العويص الفهم، السهل التقدير. هذه القدرة سمَّها الخالق، سمَّها الموجد، سمَّها الله.

يقول البعض: لم لا يكون ذلك من فعل شركاء وليس فعل إله واحد؟ ولكن هل ترانا نفهم كنه أى عضو فى هذه الشركة؟ إذن لنفرض أنها إرادة لها تفرعات فى اتجاهات مختلفة، ترجع الى أثر واحد هو قوة القدر، أو قوة الله. ولكن من هو الله؟ الله كلمة مدلولها قوة، وأساسها يقين، وظاهرها خارق، وباطنها مجهول.

هى قوة تنتج، ولكن إنتاجها أعلى وأسمى وأكثر من مجموع إنتاج مجموعة القوى الحسية الدنيوية المركبة بفعل العقل واليد البشرية، لسبب ظاهر هو أن مجموع تلك القوى كلها مظهر لنتائج أعمال القوة العليا. فما البشر إلا جزء من كثير ظاهر، معروف وغير معروف من مخلوقات تلك القوة المتعالية.

ولكن كيف تكون تلك القوة، ولها ما لها من سطوات وجولات وأفعال ونتائج مجهولة المبني، بعيدة عن للمس بحواس البشر وفكر البشر، وهى الوسائل الوحيدة لإدراك الأشياء؟

ولكن لم التساؤل عن كونها مجهولة غير محسوسة وهى صاحبة وسائل الإحساس، بل هى التى أوجدتها؟ فهل يعقل أن يحس البصر أو السمع أو الشم إحساسا عاديا بخالقه وهو محدود فى قدرته بما أراد له هذا الخالق لا يتعداه؟ وهل له أن يتعدى قدرته الموضوعة المحدودة؟ إنه لو أراد ذلك ما تمكن لأن مرتبط بحد لا يتعداه.

ومثل ذلك قريب. عندنا آلة تسييرها قوة كهربائية لتنتج عددا كبيرا من مختلف السلع والبضائع. هذه الآلة تسيير بقدره لا تتعدها، ولا تتحمل أكثر منها، فهل تقدر هذه الآلة أن تلاقى قوة كهربائية أقوى من القوة المحدودة لقدرتها؟ هل فى مقدور تلك الآلة أن تعرف كنه هذه القوة الكهربائية المسنولة عن تحليل قدرتها العظمى؟

كلا.

كذلك البشر، مُنحوا عقلا مجالاته ووصلاته محدودة بمعرفة مخلوقات الله ومنشأته المختلفة، أى محدودة بالكون الفسيح، لأنه هو مجال المعرفة الذى لا يتعداه العقل، فإن معرفته جاءت عن طريق هذا الكون فحسب. ولكن هذا الكون المتسع وضعته قوة عليا، جاوزت الحد الأقصى لمعرفة جميع عقول المخلوقات البشرية، فان تلك المعرفة فى مجموعها لا تتعدى هذا الكون بحال بعد أن أصبح حدا لأقصى معرفة مجتمعة. وعلى هذا الأساس، فان مجموعة العقول البشرية اذا اجتمعت فى صعيد واحد فلن تصل الى معرفة أكثر مما وضع حدا لها لأنها تستمد تلك المعرفة من صور هذا الحد المختلفة. أى أنها لا تقدر - لو اجتمعت - على معرفة حدود واضح هذا الحد او كيف وضع هذا الحد، لأنها تقتصر على معرفة الحد دون موجده، كالأله التى تقتصر على معرفة القدرة الكهربائية دون معرفة اساس موجدها. أى أن القوة الموجدة العليا لا يمكن قطعاً معرفتها - حتى لو تمثّلنا نهاية قصوى للمعرفة

البشرية - متجمعة متحدة. وستظل مجهولة فى كنهها وفى حدودها، لأنه لا حد لوضع الحدود القصوى.

* * *

والواقع أنه يوجد الآن فى كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يوجب شعلة ذلك الضلال، وأعنى به تعظيم شأن الفكر فحسب، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب كفيل بهدم سعادة الانسان، إن لم يقوض دعائم نجاحه، ثم إن إماطة اللثام عن هذا الاكتشاف لم تتم الا عن طريق تجارب هؤلاء العلماء مع البشر، واختباراتهم العلمية التى أجروها على الألوف.

فلن نهتدى الى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها. فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطرار التخبط، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة واخضاعها لها، فلن تؤدى هذه العلوم إلى تحرير العقول التى ابتدعتها وابتكرتها، بل ستقود حتما إلى انهيار هذه العقول وتعفنها. كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتى عن طريق آخر غير طريق العلم، وأعنى به طريق الايمان، الايمان ببعض قيم الحياة الجوهرية التى لا يستطيع المنظر إزاحتها أو زعزعتها.

وقد يبدو هذا الكلام معقدا من الوجهة النظرية، أما من الناحية العملية فهو جد بسيط. أذكر بهذه المناسبة مقطع

أخذاً لم يقلت من ذاكرتى حتى الآن استمعت إليه فى إحدى مسرحيات سترندبرج فى لحظة من لحظات الثورة العاطفية فى الرواية عندما صاح احد الممثلين قائلاً: «لن أذعن حتى أهتدى إلى هدف ثابت خارج محيط نفسى أطلع نحوه ويأخذ بيدي»، فكان تعليقى الساخر أن تمتمت قائلاً: «يا لها من عبارة صبيانية!». ، فلقد كنت وقتذاك أدرس تاريخ الفلسفة وتلك الترهات المنسوبة للعقل الحر، فليس غير الضعيف فى الحياة هو الذى يحتاج إلى هدف ثابت خارج نفسه يستند إليه. ومنذ ذلك الوقت بدأت أسمع الصيحة نفسها من مئات الناس، وإن كانوا يرددونها فى صور مختلفة وأشكال متباينة. فهذا فى حاجة إلى هدف يصبو إليه فى الحياة، وذاك يطلب منصباً خاصاً فى محيط مهنته، وهؤلاء يبعثون التحرر من الصراع العقلى والعاطفى، وأولئك باتوا يرون طعم الحياة مرأً.

ويبدو، سواء من الوجهة النفسية أم من أية وجهة أخرى يستسيغها العقل، أن الانسان جُبل منذ خُلِق على الإيمان بعقيدة ما والتصرف وفق ما يؤمن به. فالإلحاد مرض عقلى، والإيمان بالخرافات أفضل من عدم الإيمان بشىء. وكثيرون هم الذين يزدرون تلك الفئة من الناس التى تؤمن بالتنجيم، وعلم الكف، وعلم الفراسة، والروحانية، وتخطب الأفكار «التلثائى»^(١)، أو طريقة الدكتور كويه، وأصحاب مدرسة الفكر الحديث، وغيرها من النظريات التى لا تؤيدها الحقائق العلمية أو تلقى

(١) التلثائى : ظاهرة ابصال تأثيرات من أى نوع من عقل إلى آخر، بعيداً عن مجارى الحس المعروفة.

عليها ضوءاً من الشك. وأعتقد أن مثل هذا الازدراء تصرف غير سليم، إذ أنه مهما بلغت هذه المعتقدات من السخافة، فهي أفضل من عدم الاعتقاد فى شىء على الإطلاق. فالاعتقاد فى قراءة الكف يؤدى بنا على الأقل الى مصافحة أيدى الغير والشدّ عليها، والتعلق بعلم الفراسة يقودنا الى مداومة النظر الى وجوه الناس وفحصها، والثقة بعلم التنجيم تضطربنا الى أن نعرف أيام ميلاد أصدقائنا ومعارفنا، والإيمان بالروحانية يرغمنا على الجلوس مع غيرنا ملتصقين فى دائرة واحدة يلعب الانسجام والتآلف بين أفرادها دوراً جوهرياً. كل هذه المعتقدات تقوم بدور كبير فى سبيل إزاحة الإنسان بعيداً عن عالم ذاته، وتدفعه دفعاً فى اتجاه عالم آخر مليء بغيره من البشر، عالم أشدّ خصوبة وأوفر متعة. ومن الظواهر البارزة التى يجب تسجيلها هنا أن عدداً كبيراً من العقلية العلمية العظيمة الشهيرة قد عجزت عن اشباع نفسها فى الميدان العلمى الذى نبهت فيه، ومن ثم تحولت إلى دراسة الروحانية أو التلباى العقلية لعلها تجد فى ذلك راحتها وسلواها.

كم تبدو مثل هذه المعتقدات واهية تافهة إذا ما قورنت بالإيمان بالعقيدة الدينية التى تتخلل الحياة فى مختلف نواحيها، والتى لا يمكن لأى علم قائم أن يقيم الدليل على بطلان مضامينها الجوهرية؟ فالواقع أن عبادة العقل والاحتقار الفكرى للديانات قد جعلنا الإنسان فريسة سهلة بين أيدى تلك النظريات شبه العلمية التى لا تقوم اليوم إلا لتموت غداً، ولقمة

سائغة بين برائن ادعاء الطب، وتلك المذاهب السياسية التي أصبحت اليوم تحير عقله وتبلبل فكره.

وأظن أنه لا يغيب عن فطنة أى لبيب، أن الاعتقاد فى وجود الله هو فى حد ذاته اعتقاد معقول مقبول، بل أقرب الى التصديق من تلك الاعتقادات المثيرة للسخرية التى يدين بها الناس الآن - إن كان العالم يتطلع الى كل ما هو معقول مقبول - ولعل الإيمان بالله وبرسله وكتبه أقل عرضة للمهاترات الجدلية من معظم تلك العقائد شبه العلمية التى يقع الإنسان الآن تحت سلطان تأثيرها المخدر، فإن إيمان المرء بشىء ما ليس أمراً طبيعياً فحسب بل هو جد ضرورى له. ففى حالة عدم توافر الإيمان الصادر عن القلب يصبح المرء عبداً ذليلاً لكل عقيدة محملة بوعود الحياة الوفيرة التى يشتهيها ويرتقبها.

* * *

وقد دأب علماء النفس منذ سنين على القيام بدراسات علمية حول علم نفس العقائد وعلاقتها بالحياة، فطالعونا بعدد من الاختبارات المتنوعة لاستخدامها مع كل الأفراد والجماعات، كاختبار البورت للقيم الذى يشمل العقائد الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتقدير النفسانى للجمال، ومقاييس ثيرستون لقياس الميول والاتجاهات، منها سبعة عشر مقياساً للمعتقدات الدينية والاقتصادية والخاصة بالأجناس.. إلى آخره، وكذا مقياس دُول للرشد وغيره. وقد أجريت دراسات واسعة النطاق على معظم أفراد الشعب الأمريكى لمعرفة

الاجتهادات المتغيرة في عقائد الجمهور. وإحدى هذه الدراسات التي أجريت في هذا المضمار هي تلك الدراسة التي طبقت على موضوع تفريج أزمة البطالة، فقد قام جمع مكون من حوالي خمسين عالما من علماء النفس وتلامذتهم بعمل اختبارات متعددة على عامة أفراد الشعب في خمسين مدينة من مدن الولايات المتحدة الأمريكية، وانحصر في طرح السؤال التالي: أيهم تعتقد يكون المسئول عن تفريج أزمة البطالة، هل هي بلدية مدينتك أم حكومة الولاية أم الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة؟

وكانت النتيجة التي أوردها الدكتور بول أشيل في إجراءاته التي قدمها لاتحاد علم النفس الأمريكي في سبتمبر ١٩٣٥ كالآتي:

	مايو ١٩٣٥	أبريل ١٩٣٥	١٩٣٣ فبراير
يحبذون فكرة قيام بلدية المدينة بهذا الواجب	١٧.٧%	٢٥.٤%	٤٣.٤%
يحبذون فكرة قيام حكومة الولاية بهذا الواجب	٢١.٥%	٢٤.٩%	٢٥.٩%
يحبذون فكرة قيام حكومة الولايات المتحدة بهذا الواجب.	٤٧.٩%	٣٩.٨%	٣٣.٤%
لا يعرفون	٢١.١%	١٨.٧%	١٥.٥%

تدل هذه النتائج على الميل الواضح إلى عدم إلقاء المهمة على عاتق بلدية المدينة أو السلطات المحلية، وعلى الاعتقاد بأن هذا الواجب من مسئولية حكومة الولايات المتحدة كلها.

مثل هذا الفرار من الالتزامات الشخصية والخلقية الذي يظهره هذا الميل بوضوح، لا يمكن أن يحدث إلا فى مجتمع يفتقر إلى المعتقدات والمبادئ الدينية، بل إن الإيمان بفكرة قيام الغير بتحسين حالنا، هذا الإيمان الذى يعكسه الاتجاه السالف، لا يعنى إلا شيئا واحدا، هو انعدام إيمان الأفراد بأنفسهم، وافتقارهم إلى الشعور بواجباتهم والتزاماتهم، حتى بات الكل يأمل أن يلقى بالمسئولية على عاتق غيره.

ويتضح مما سبق أن الاتجاه الشعبى يخطو حثيثا نحو الانطوائية، لأن الناس يفضلون الطريق السهل المعبّد لیسلكوه، فتراهم يفرون أمام حقائق الحياة، محاولين جهدهم الابتعاد عن كل ما يكبدهم مشقة، ويتجنبون الاحتكاك المباشر بالناس، ومن ثم السير وراء تجارب الغير بدلا من الاستفادة بتجاربيهم الشخصية. مجمل القول إنهم يهربون من كل تلك العوامل المؤدية إلى الانبساط والكفاية الشخصية والحياة الوفيرة لكل منهم ولغيرهم من العاطلين. وبرغم أن البرنامج الذى بدأ الناس يتبعونه يبدو معقولا، إلا أنه فى الواقع ليس إلا ذريعة عقلية يتجنبون بها الحل الصحيح، فنحن نضع آلهة الفكر أو المنفعة السياسية فوق آلهة الواجب العبوس، وننساق وراء آلهة المنفعة المؤقتة الفانية، بدلا من آلهة المنفعة الخالدة الأبدية.

واننى كطبيب نفسى اولا، وكإنسان ثانيا، سأحاول أن أقدم
النصيحة خالصة، وسأبدل كل جهدى لمساعدة كل من هو فى
حاجة إلى معونتى، دون أن أعتبر نفسى أحد الآلهة، وأتطلع
إلى عدم حرمان أى فرد من حقوقه الشرعية فى الاستقلال
بنفسه، والاحتكاك المباشر بغيره من الناس، والكد والمعاناة،
وأى سعادة قد يجلبها على نفسه من وراء سعيه. وأذكر بهذه
المناسبة حالة سيدة أسكوتلاندية فى الخمسين من عمرها،
كانت فى عذاب مستمر وهى تعبر أرح فترات حياتها، فقد
مات زوجها فجأة وكان قد بدأ يذوق طعم النجاح فى
مشروعاته التجارية دون أن يترك لها موردا، مخأفا لها طفلة
فى الخامسة من عمرها. وكانت أسرتها فقيرة برغم أنها
متقفة، فهاجرت إلى أمريكا وأخذت تزاوّل الخدمة فى المنازل.
وفى الوقت الذى جاءتنى فيه السيدة كان لها عشر سنوات
تعمل فيها مديرة شئون منزل إحدى الأسرات الثرية تسوس
فيها حوالى خمسة عشر خادما. مجمل القول إنها كانت امرأة
قديرة. أما ابنتها فقد تزوجت برغم معارضة أمها، وحاولت الأم
أن تتركها هى وزوجها يعيشان فى سلام، لكن متاعبهما التى
لم تكن تقف عند حد جعلت هذا الأمر مستحيلا، إذ فقد الزوج
وظيفته بعد أن تم له تأييث بيته، فشعرت الأم أنها مضطرة إلى
بسطيد العون لهما مما ادخرته فى السنوات العشرين
الآخيرة، وأخذت مطالبهما تزداد بالتدريج حتى نضب معين
الأم. وكان الزوجان لا يكفان عن الشجار منذ عقد قرانهما،
وزاد الطين بلة بغيره الزوجة المتناهية. وقد تأجج هذا التنافر

بعد أن وضعت طفلها منه، وكانت تفصيلات المشاحنات الدائرة بينهما والتي سردتها الأم على مسامعي جدّ مؤلمة، حتى لقد حاولت الزوجة الانتحار مرة وتم إنقاذها في اللحظة الأخيرة. وبعد انقضاء فترة تدلّدت الزوجة في حب جار لها كان والدا لأربعة أطفال بادلها المشاعر وإن لم يكن على استعداد لهجر أسرته. ثم وقعت الفتاة فريسة مرض خطير، فنصحها الطبيب بقضاء بضعة أشهر في راحة تامة في مكان بعيد، الأمر الذي تطلب مبلغاً كبيراً تكفّلت الأم بسداده. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وجدت الأم نفسها مضطرة إلى طلب عطلة مؤقتة تقضيها إلى جوار ابنتها وحفيدتها. وبعد أن فرغت الأم التعبة من سرد قصتها التفتت إلى صائحة: «قل لي بالله ماذا صنعت حتى يلحق بي كل هذا العذاب؟ وبم تنصحنى فلا أدري أى وجهة أتجه؟ ولا أعرف ما ينبغي على عمله؟ لقد كنت دائماً متديئة إلى أقصى الحدود، أصلى بين وقت وآخر وأسأل الله الهداية والتوجيه، لكن السنوات الخمس الأخيرة قد هزّنتنى هزاً حتى بدأت أفقد إيماني بالله. وأنا أعترف بأنى قد ارتكبت بعض الأخطاء، فقد كان أولى بي ألا أمدّ إليهما يد المساعدة من أول الأمر، فلا تعيش إبنتى وطفلتها في منزلى فتتجنّب المأساة الغرامية مع جارها. ماذا ترانى فاعلة الآن وبعد أن يتم شفاء ابنتى؟ فقد أشار على أحد أصدقائى بالالتجاء إليك. ولا أكتمك أننى لم أكن أوّمن بمثل هذه الوسائل العلاجية إلى أن أقنعنى. فهل ثمة شئ يمكنك به أن تنتشلنى من هذا المأزق؟».

ترى ماذا أقول لها؟ أو ماذا يمكن أن يقوله لها أى إنسان؟
فهى قد نكرت بنفسها خطر عواطفها الناجمة عن بلوغها تلك
السن، وهى قد اعترفت بارتباك عواطفها الناشئة عن وجودها
بمفردها كامرأة إلى جوار ابنتها الوحيدة، وهى قد ندمت على
الخطأ الذى تردت فيه عندما كانت تقدم المساعدة المالية
بسخاء، بل لم يعد فى إمكانها الآن تكراره، فمن يمكنه التنبؤ
بما ستؤول إليه هذه الحالة، ويمكنه علاجها وهو واثق من
نجاحه؟

كانت هذه المرأة البائسة فى حاجة ماسة إلى من يشد
أزرها ويشجعها لا إلى من ينتقدها ويعدد أخطاءها، ولذا قلت
لها: «إن هناك هفوة واحدة خطيرة أخشى أن تقدمى عليها،
وهى أن تفقدى إيمانك بالله وبدينك، فإن دينك لم يعدك بحياة
مثالية فى هذه الحياة، وبأنه سيجنبك الآلام والعذاب. لكنه
يضمن لك القدرة والقوة على الصمود أمام هذه الآلام. كما أن
دينك لا يتوقع منك أن تكونى مثالية، لا تأممين فى حياتك ولا
تخطئين فى الحكم على الأمور، لكنه يعدك بالصفح عن أثامك
وغفران أخطائك. إن دينك ينتظر منك المداومة على بذل كل
جهدك فى سبيل غيرك، لكنه لا يضمن لك أو لغيرك تنظيم حياة
الغير حسبما تشتهين. ولا يفوتنى أن أذكرك أن معنى دينك هو
الثقة بالله وبأساليبه الغامضة أحيانا. فمثل هذه الثقة تدعمك
بسلام وثقة باطنيتين، أنت فى أشد الحاجة إليهما كى تهتدى
إلى حلٍ تخرجين به من مشكلتك العويصة. صحيح أننى ربما

قد أستطيع مساعدتك بتقديم بعض النصائح المفيدة، ولكن لم يُخلق بعد من بين البشر من يمكنه أن يمنحك شيئاً يعادل في قوته وفائدته ما يمنحك دينك، بل إننى أعدك محظوظة إلى حد كبير لأن لك ديناً يمكنك الاعتماد عليه.

وكم سررتى أن لم تعد هذه السيدة فى حاجة إلى بعد، فقد لاحظت من السكينة التى غمرتها فيما بعد والثقة العجيبة بنفسها التى اكتسبتها أنها قد عبرت المحنة بسلام، وأنها عملت كل ما بوسعها - أكثر من أى شخص آخر - لاجتياز مشكلتها.

ولقد قيل إن الدين ملجأ ضعاف العقول. أما من الناحية النفسية فأقول بدورى: إن هذا الضعف إنما يكمن فى عجز العقول عن إدراك ضعف العقول كلها. فالشعب الأمريكى على سبيل المثال يتخبط اليوم بدرجة لم يتخبط بها أى شعب من قبل برغم تقدم العلوم الحديثة، واضطراد نظم التعليم، وكل تلك الوسائل الآلية التى تعيننا على الارتقاء بعقولنا والنهل من الثقافة والمعرفة وأعنى بها وسائل المواصلات السريعة. فقديماً كنا نسمع أن قتالاً قد نشب تارة فى سبيل إلغاء الرق، وتارة أخرى فى سبيل اكتساب بعض الحقوق والحريات إلى غير ذلك، أما الآن فأوجه الصراع متعددة لا حصر لها، وكلها تنشب فى وقت واحد، وبدور معظمها حول مشروعات مادية أو فى سبيل إقامة صرح حياة اقتصادية وفيرة.

ويرجع الفضل فى ظهور معظم هذه المشروعات، إلى
الاستنارة الفكرية فى عصرنا. ويكاد معظم المنادين بهذه
المشروعات يتصفون بصفة واحدة مشتركة تضمهم جميعا،
هى العجرفة الفكرية غير المحدودة التى تحتقر قيم الطبيعة
البشرية الجوهرية البسيطة، مصحوبة بعقيدة جوفاء فى مدى
قدرة مشروعاتهم الطموحة.

فبقدر ما نكتسب من العلم والمعرفة، نلمس عجزنا
وجهلنا بالقيم الأساسية للحياة والأخلاق، التى هى فى العادة
قيم دينية^(١) غير صادرة عن العقل، بل هى بعيدة كل البعد عن
إدراكه. فإذا اتحد العقل مع الدين وامتزج به كان عقلا جبارا
قويا، عقلا ليس نهبا للتيارات المختلفة التى لا تفتأ تنبع من
المعارف المتزايدة الناتجة عن التفكير المطلق غير المتأثر بالدين.
فإذا نصبنا من العقل إليها نعبد وندين به، نكون قد انحرفنا
بعيدا عن طريق الله. ولا عجب فقد بتنا عبيدا للسببية والعقل
تخدرنا الحقائق العلمية، وصدق ألدوس هكسلى إذ يقول:
«لاشك أنكم بالغون الحقيقة يوما ما، وستجعل منكم الحقيقة
بجائين».

(١) يقول 'له تعالى فى كتابه الكريم «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». (الترجم).

الفصل الخامس الخير فى الاندماج مع الناس

«ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة. إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون». (الروم)
«وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»
(المائدة)

«وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل... قال لهم يسوع:
املأوا الأجران ماء فملاوها إلى فوق. ثم قال لهم: استقوا الآن،
وقدموا إلى رئيس المكان فقدموا.
لم يحضر عيسى العرس فى قانا الجليل فحسب، بل إنه لما فرغت
الخمير أذعن لاقتراح أمه التى أوحته بتقديم المعونة إلى أهل العرس
بان يجعل الماء خمراً (يوحنا) ٢: ١، ٧، ٨،

حدث أن دُعِيَ عيسى عليه السلام إلى عرس فى قانا
الجليل، فلم يكف بالمبادرة إلى تلبية الدعوة فحسب، بل انقاد
لرأى أمه عندما فرغت الخمر وطلبت إليه تقديم المعونة إلى أهل
العرس بأن يحيل الماء خمراً. فبتحليل حياة عيسى لن نجد
فيها قبسا اجتماعيا هاديا فحسب، بل إن حياته نفسها قصة
خالدة فى وسائل كسب الأصدقاء من كافة الطبقات وفى
مختلف الظروف وشتى المواقف.

وإذا نظرنا إلى الصداقة من الناحية النفسية، نجدها تحتم
على الإنسان اتباع سلوك إجبارى معين، أعنى إخضاع ميوله
ورغباته لميول الغير ورغباته. ولكن سرعان ما يلمس أولئك
الذين اكتسبوا موهبة كسب الأصدقاء أن هذا السلوك لم يعد

إجبارياً، بل لقد صار فيهم طبيعة ثانية. وسرعان ما يعتادون التصرف بما يدخل السعادة في نفوس الغير، حتى باتوا يشعرون أنهم إنما يدخلون السعادة إلى نفوسهم هم لا إلى نفوس أصدقائهم. وهذا حق، لأن إشاعة السرور في غيرهم قد أصبح المبدأ الأول في برنامج متعتهم وأسلوب حياتهم القائم على إنكار الذات ومراعاة احساس الغير.

هل تلعب البريدج ؟

سؤال وجهته مراراً إلى معارفى فإذا البعض يجيب قائلاً: «لا فأننا اعتبره مضيعة للوقت» فى حين يقول آخرون: «نعم نلعبه، ولكن، لشدّ ما نمقت أن يلعبه زملاؤنا بجدية مفرطة».

ومع ذلك فما أكثر ما أشرت على المئات من مرضاى بأن يتعلموا لعبة البريدج، بل أوصيتهم أن يلعبوه بطريقة جدية، لا لسبب إلا لأنه أحد الألعاب الهامة اللازمة لاكتساب عادات إنكار الذات وصفات الشخصية المحببة.

فذلك الشخص الذى لا يحب أن يلعب البريدج جدياً هو مخلوق أناني، لأنه يضرب صفحاً عن اللذة التى يمكن أن يشعر بها زملاؤه خلال اللعب.

فتعلم البريدج يتطلب اكتسابك عدداً كبيراً من العادات الانبساطية - وأذكر أنى أحصيت منها ثلاثاً وخمسين عادة، وهناك غيرها بطبيعة الحال - تجعلك تركز انتباهك فيما يقوله ويعمله سواك. وكنت أوصى بهذه اللعبة خصيصاً بالنسبة

لأولئك الانطوائيين الذين يفتقرون إلى الجاذبية الاجتماعية لأنه إذا تعلم أحد أولئك المنطويين أن يلعب دوراً واحداً من البريد بابتقان، تعلم كيف يركز انتباهه فى شئ خارج محيط ذاته، فى شئ يجلب المتعة إلى غيره، فمعرفة لعب البريد تتيح له الفرصة لتثبيت قدميه فوق شئ ما يبدأ منه الحديث إلى الناس، فإن كان يجيد اللعب طغت مهارته على كونه محدثاً غير لبق. ففى خلال هذه الظروف المناسبة فقط يمكنه اكتساب العادات الاجتماعية المفيدة بسهولة.

الرقص :

لقد كنت فى تربيته الدينية منذ نعومة أظفارى أن لعب الورق والرقص ومشاهدة المسارح من الأمور المحرمة. ومع ذلك فقد حاولت عبثاً أن أجد فى تعاليم المسيح أو فى كتابه المقدس ما يبرر مثل هذا الحظر الذى كانت تفرضه الكنيسة، ولازال البعض يفرضه حتى الآن، فلم أهتد إلى شئ من هذا القبيل. فإن أى نشاط - مهما بلغت مزاياه - قد يكون فى رأى الدين أحياناً مصدر شر يلحقنا أو شرك ينصبه الشيطان لنا. أما الرقص على سبيل المثال فله فى رأى فائدة عظيمة، وقد أشرت به على المناسبات من المترددين على. جاعنى رجل جذاب فى السادسة والعشرين من عمره يشغل مركزاً لا بأس به، لكنه مع ذلك تعس إلى حد جعله يفكر جدياً فى الانتحار. وبعد أن أجريت عليه الاختيار اللازم، اتضح أنه لا يفكر فى غير نفسه بل يبالغ فى هذا التفكير، وأنه محروم من الأصدقاء ومعدوم الصلات الاجتماعية، ويمضى معظم أمسياته فى المطالعة، كما

اعترف لى انه لم يصادق فى حياته امرأة واحدة، ولم يدع أية فتاة إلى مرافقته فى أية نزهة، ويتجنب قدر طاقته أن يظهر فى أى مكان مع النساء. وهذا بطبيعة الحال مظهر واحد فحسب من مظاهر مشكلته، لكنه مظهر أساسى هام. وقد جرت العادة فى مثل هذه الظروف أن يقال لمثل هذا الشاب: «أنت فى حاجة إلى امرأة». إلا أنه لم يسبق لى قط طوال الفترة التى زاولت فيها مهنتى أن قلت لرجل ما أنه فى حاجة إلى امرأة. أو قلت لامرأة أنها فى حاجة إلى رجل، إنما كنت أدلى فى المناسبات من الحالات التى عرضت على باقتراحات عملية تقود الواحد منهم إلى إكتساب العادات وأوجه الانشطة التى تؤهله ليكون زميلاً مؤنساً لغيره من أفراد الجنس الآخر. وكنت أعد البريدج مثلاً أحد هذه الأوجه النافعة، كما كنت أعتبر الرقص أسرع بل أقوى مستحدثات العلاج النفسى لرفع ذلك السياج المصطنع الذى يقوم حائلاً بين أفراد الجنسين.

وإليك ملاحظاتى التى دونتها بخصوص مشكلة ذلك الشاب وقتذاك: ينقسم البشر إلى قسمين: رجال ونساء. وأنت إذا عجزت فى صغرك عن تنمية عادات أساسية معينة، تكون قد استبعدت من حياتك كلية ذلك الجانب من الحياة. فإن قدراً كبيراً من طاقة الفرد الطبيعية - باعتباره مخلوقاً بشرياً - لا يمكن إشباعه تماماً دون التعبير عنه عن طريق ذلك الجانب الأثنوى من الحياة. ويتمثل هذا التعبير، الذى يتخذه هذا النوع من الطاقة عادة، فى الأحاديث التى تدور مع الفتيات فى المدارس، والمواظبة على التردد على الحفلات التى تضم الفتيات، وغير ذلك من أوجه النشاط التى توفر هذه الزمالة،

وأخيراً فى الزواج. فالزواج والابوة، هما الذروة التى يبلغها التعبير عن طاقة المرء الطبيعية بالنسبة للجنس الآخر. ومع ذلك فكثيراً ما يمتلك الأفراد أثناء طور شبابهم خوف الملامسة البدنية للجنس الآخر، لا لسبب إلا لطبيعة هذا النوع من الطاقة، والعلاقات الجنسية التى تتطلبها، فترى بعضهم يقيم سياجاً بدنياً بلغ جموده وعنفه حدّاً جعلهم ينفرون حتى من أكثر الملامسات البدنية شيوعاً، فقد يطالع الغلام القصص الغرامية ويستمتع بالمواقف المثيرة فيها، لكنه ما يكاد يلج عالم الحقائق، حتى يتصور مجرد مصافحته لإحدى الفتيات تجربة مؤلمة قاسية يفضل لو تجنبها وابتعد عنها.

إن كل من يشعر بأن مثل هذا السياج قائم إنما يحرم نفسه من متعة جمال أى لقاء عرضى بينه وبين إحدى النساء، حتى ليغدو الحديث إليها أشد صعوبة من الحديث إلى الرجال، ومن ثمّ تصير النساء جنساً غريباً عنا لغير ما سبب إلا لأنهن إناث.

أما الفائدة التى يجنبها المرء من تعلم الرقص فهى اضطرار الرجل إلى ممارسة الملامسة الجسمانية لا مع امرأة واحدة فحسب، بل مع عدد وفير منهن، إلى أن يقتنع فى نهاية الأمر أنها تجربة ليست من البشاعة أو الصعوبة التى كان يتصورها. ثم إن حصر انتباهه فى محاولة ضبط وقع خطواته وإحكامها مع خطوات زميلته، ليس إلا نشاطاً يتطلب عنصر التعاون، حيث يتعاون شخصان فى سبيل بلوغ الكمال فى شئ ما، كلاهما يخضع قدميه لخطوة خاصة يتطلبها إيقاع خاص. فإذا هو يجد نفسه مضطراً إلى ضبط خطواته مع

زميلات عديدات مختلفات، ومرغماً على التحدث إلى كل منهن في موضوعات شتى، ويجد نفسه مسوقاً إلى تحريك قدميه تبعاً لخطوات مختلفة. حسب ما يمليه اللحن الراقص. وجملة القول إنه بمزاولته الرقص لا يكتشف المرأة فحسب بل جنس النساء بصفة عامة، فيراهن بشراً مثله، لا ذلك الجنس الرهيب الذي كان يتخيله. وهكذا يكون قد خطا خطوة واسعة في سبيل التعبير عن طاقته، فنصيب كبير من هذه الطاقة قد هيأته الطبيعة لهذا الغرض.

والرقص كغيره من أوجه النشاط الاجتماعي يتطلب حياة قدر كبير من العادات البعيدة عن الأثرة. وما أكثر ما نصحت الكثيرين، ممن يترددون على سعياً وراء السعادة، بأن يستخدموا أقدامهم أكثر مما يستخدمون رؤوسهم إن كان بلوغ السعادة بغيتهم.

حول قراءة الكتب المفيدة :

أعطتني إحدى السيدات قائمة بها حوالى مائة وخمسين كتاباً دونت على رأسها هذه الملاحظة «أنا لا أعير الكتب التافهة الثقافات، ولا أطلع سوى الكتب التى تسمو بعقلي، وتزيد معلوماتى الأدبية، وها هى ذى قائمة الكتب التى قرأتها فى مدى السنتين الأخيرتين».

والواقع أن الكتب الواردة بتلك القائمة كانت جميعاً من أفضل السير الذاتية والقصص والمقالات، وقد أثبتت على حسن اختيارها، ولكنى سألتها: كم عدد الأفراد الذين تعرفت

عليهم وأصبحت على صلة وثيقة بهم فى السنوات القليلة الأخيرة؟».

وقد أخرجها هذا السؤال، لأنها لا تكاد تذكر أسماء خمسة أشخاص تعرفت عليهم حديثاً، ويمكنها أن تزعم أنها على صلة بهم غير تبادل التحية العادية.

كما تبين لى أنها قضت سنة كاملة بإحدى الكليات تدرس «الشخصية»، وقد عرضت على «كراسة محاضراتها» التى تحوى عددا كبيرا من الرسوم والبيانات التى توضح المحاولات التى بذلتها هى وبقية أفراد فصلها فى سبيل قياس صفات الشخصية المختلفة.

فسألتها «وكم عدد أفراد فصلك هذا؟»

فأجابت قائلة: «سبعة وثلاثون يبلغ عدد الذكور منهم أكثر من النصف».

فسألتها «وهل كنت تتناقشين مع طلبة الفصل فى أى موضوع من هذه الموضوعات قبل الدرس أو بعده؟».

فقالت: كنت أصل دائما فى الوقت الذى يبدأ فيه الدرس وأبارح الفصل عقب انتهائه مباشرة، ولذلك لم تتح لى الفرصة كى أبادل زملائى المناقشة.

وكان أحد الدروس التى تعلمتها فى هذه الدراسة أهمية الإكثار من الابتسام، لأن البسمة هى أحد العناصر القوية للشخصية الجذابة، وقد استرعى انتباهى أثناء حديثها أن

فمها يتسع بانتظام عن ابتسامة إثر أخرى حتى بدت أسنانها مكشوفة، وكانت النظرة المرتسمة على وجهها آلية لا تعبر عن سعادة أو صدق فأخذت أفسر لها بمنتهى ما أوتيت من اللباقة المصاعب التي تصادف الإنسان لتكوين شخصية سوية، إذا أصر هذا الإنسان على العيش وحده فى فراغ غير محدود، كما أشرت عليها بضرورة الانضمام إلى إحدى الجمعيات والاندماج فى نشاطها الاجتماعى، وأن تتخذ دورا ايجابيا فيما تؤديه نحو المجتمع، وأن تتعلم الرقص، إلي أن اقترحت عليها أن التوقف كلية من مطالعة الكتب أيا كان نوعها لمدة عام كامل وتقصر مطالعاتها على مجلتى «نيويورك» و «ريدرز دايجست»، وأن تقرا كل يوم فصلا كاملا من الكتاب المقدس، وتتصفح أية صحيفة يومية. ثم نصحتها أن تنفق المال الذى كانت تنفقه على دراساتها واستشاراتها للأطباء النفسيين فيما يتصل بشخصيتها فى شراء الثياب وأدوات التزين والتجميل، وفى مختلف نواحي النشاط المتعلقة بمخالطتها لغيرها من الناس.

كانت هذه المرأة واحدة من المئات بل الآلاف اللاتى يتصورن أن فى وسعهن تحسين شخصياتهن بتركيز أفكارهم فى أنفسهن، شأنها شأن المرأة التى تجلس أمام مرآتها تحديق فى صورة وجهها، وما تكاد تلمح «تجعيدة» فى بشرتها حتى تطيل النظر وتمعن فى التحديق مقتربة بوجهها من المرآة حتى تكاد تلامسها، ثم تبدأ تفحص «التجعيدة» بعناية فائقة، وتتناول مرآة اليد مسرعة نحو الضوء حتى يمكنها رؤية وجهها أكثر

وضوحاً، وكلما أمعنت النظر وزاد اقتراب وجهها من المرآة تفاقمت بشاعة التجاعيد، حتى تجدها آخر الأمر وقد اقتنعت تماماً أنها أصبحت عجوزاً شمطاء يتدلى أحد قدميها فى القبر، ولو أنها قضت هذا الوقت خارج بيتها مع نفر من معارفها، فأغلب الظن أنه لن يلحظ هذه التجعيدة التى أزعجتها واحدٌ من عشرة من الحاضرين.

حول الأخلاق والشخصية :

إن الهدف الرئيس من التربية هو بناء الشخصية وتهذيب الأخلاق، ومع ذلك فانت تجد إجماعاً بين علماء التربية على تعريف موحد للأخلاق أو للشخصية. وهذا هو الضعف الأساسى لطرق التربية الحديثة الذى يؤدى إلى الفوضى والارتباك فى نظم التعليم، إذ كيف تبلغ التربية أهدافها إذا لم تكن هذه الأهداف محددة.

فاذا نعت القوم شخصاً ما بأنه قويم الأخلاق فهم فى واقع الأمر يعنون أنه أمين لا يسرق، صادق فيما يقول، متزن فى عاداته. ومع ذلك فقد يكون غيبياً لا أثر له فى معتك الحياة ولا يفيد أحداً، أى يكون مفتقراً إلى ما نعنيه عندما نقول إن هذا الشخص ذو شخصية فذة. ويكاد علماء النفس يجمعون على أن التعريف الصحيح للشخصية هو أنها مدى استعداد المرء لتحويل قدرته وطاقته إلى مآثر وعادات تكسبه حب الناس.

فالفتاة التى إذا داعبت أناملها أصابع البيانو أطربت غيرها ذات شخصية أفضل من الفتاة التى لايمكنها ذلك. والصبى

البليد غير الجذاب الذى يجيد لعب التنس يصير أشد جاذبية خلال لعبه، وتوفر له مهارته فى اللعب حاجته من الأصدقاء الذين لم يكن فى إمكانه التعرف عليهم لو لم يكن يجيد لعب التنس. والرجل والمرأة اللذان قد اكتسبا عادات تسلية الغير ومد يد المساعدة إلى الناس لا حاجة بهما أن يقلقا إذا كان الأول أقل من أدونيس^(١) وسامة وإذا كانت الثانية دون فيلوس^(٢) فتنة.

فالواقع أن المهارة المكتسبة فى كل من ميدانى اللعب والعمل هى التى تكون الشخصية وتمنح المرء الجاذبية والتأثير. وما أكثر ما كان يصارحنى أحد مرضاى قائلًا: «إذا كان الناس لا يحبوننى لشخصى، بل لما يمكننى أن أفعله وأؤديه، فإننى أفضل ألا يحبونى على الإطلاق».

إن مثل هذا الاتجاه لا يدل إلا على إخفاق الإنسان الذريع فى فهم طبيعة الشخصية. ولهذا عرف علماء النفس صفات الشخصية منسوية إلى مدى انبساطها، ودرجة القدرة الاجتماعية، والاكتفاء الذاتى، والاتزان العاطفى وأمثال هذه العادات. ومهما كان نوع التعريف أو الاختبار المستخدم تظل وحدات القياس دائمًا إما العادات المكتسبة، أو الاتجاهات والميول التى تمثل مجموعات من العادات وعلى هذا الأساس تعد الأمانة صفة من الصفات التى يتعذر قياسها، لكنها

(١) أدونيس فتى وسيم ما كادت أفروديتى [فيلوس عد الرومان] تلتقى به بينما كان مستغرقًا فى الصيد حتى وقعت للثوفى غرامه لجماله وفتوته

(٢) فيلوس أو أفروديتى، ربة " نالو الحب فى أساطير الإنعريق والرومان .

سرعان ما تعدّ إحدى العادات الانبساطية طالما هي تمثل مراعاة حقوق الغير.

وما أكثر ما يقال برغم ذلك أن التاريخ زاخر بعدد وفير من الشخصيات الفذة. وذوى الأخلاق القويمة، ممن لم يكن للدين تأثير عليهم، ومع ذلك فما زال هناك سؤال سيظل دون إجابة وهو: ما هي المبادئ أو القيم الأساسية التي تساعد أكثر من غيرها في تشكيل الشخصية السوية؟

لا أظن أحدا ينكر أن أعظم الشخصيات الملحدة في التاريخ كان يسيطر عليها ويحركها هدف ما أو مثل أعلى، جرفها بعيدا على ذاتها، بل جعلها تقترب كثيرا من معتقدات الدين البالغة السمو.

الفصل السادس إنما نحن من يصنع الأطفال

«ولكن كل تاديب فى الحاضر لا يرى انه للفرح بل للحزن. واما اخيرا فيعطى الذين يتدربون به ثمر برّ السلام. لذلك قوموا الايادى المسترخية والركب المخلعة. واصنعوا لارجلكم مسالك مستقيمة لى لا يعتسف الاعرج بل بالحرى يشفى».

(الرسالة إلى العبرانيين ١٢: ١١ - ١٣)

بينما كنت عائدا مع زوجتى بالقطار من «فورست هيلز» حيث كنا نشهد مباريات التنس فى احدى أمسيات شهر سبتمبر الحارة، تطرق بنا الحديث إلى موضوع انتظام الأطفال فى الدروس الدينية، وكان السؤال الذى لا يفتأ يراود ذهنينا هو: أنرسل ولدينا اللذين بلغ أحدهما الرابعة والآخر الثانية، للاستماع إلى هذه الدروس أم لا؟ فقد كنا فى صغرنا - سواء انا أو زوجتى - نساق قسرا لا إلى هذه الدروس فحسب، بل إلى الكنسية بالمثل. وبطبيعة الحال كنا كثيرا ما نشور معترضين، وإن كنا لا نلبث أن نرضخ فى النهاية إزاء إصرار ابائنا المتدينين. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كانوا يصرون على أن نصطحبهم كلما توجهوا فى إحدى المناسبات إلى الكنيسة أو الجمعيات الدينية. كذلك اعتدنا فى بيوتنا أن ندعو الله قبل كل وجبة شاكرين نعمته، ونصلى صلاة قصيرة، كما كنا نشترك فى جميع الصلوات اشتراكا فعليا يقرأ كل منا فيها فقرات من الكتاب المقدس، ثم ننحنى راکعين فى خضوع وبراءة رب الأسرة الذى كان يؤمنا فى الصلاة.

وما كدنا ندخل الجامعة حتى طرحنا تلك القيود جانبا، ولم نتحرر من هذه الأنظمة الدينية فقط، بل إن الثقافة التي كنا نتلقاها وبتزود بها قد حررتنا عقليا منها فأدركنا فى ضوء العلم الحديث مدى تفاهة الكثير مما ورد بالإنجيل. أما تلك الشكوك التي كانت تراودنا قبل الانضمام إلى الجامعة فقد أصبحت تنال من تفكيرنا قسطا أوفى وتحتل من أذهاننا مكاناً أوسع بعد أن أضفنا إليها أيضاً عددا كبيرا من التساؤلات الدينية التي لم يسبق لنا التفكير فيها، أتينا بها كلها ووضعناها تحت عدسة مجهر الأبحاث العلمية والتاريخية، فإذا هي تتمخض عن آراء جديدة بدأت تحتل تلافيف عقولنا الصغيرة.

وفى النهاية، توصلنا إلى أن عناصر الدين الملموسة المحسوسة كالكنيسة وأقسامها المتعددة وما يتبعها من المذاهب والعقائد، وتصنيف الناس إلى فرق دينية مختلفة. كل هذه الاجراءات إن هى فى الواقع إلا أخطاء وليدة الخرافات التي استنبطتها عقول قاصرة عند محاولتها تفسير الجوهر الروحي للدين.

كان هذا فيما يتصل بالعناصر المادية الملموسة، على حين بقى من الدين ذلك الجانب المعنوى، ذلك الجوهر الروحي غير الملموس، ذلك الإله الذى تجرد عن أى مظهر أو أى ارتباط مادي ملموس فى سلوكنا اليومي أو النظم التي شربنا عليها. هذا الجانب بالذات قد أطلقوا عليه اسم الإيمان الروحي بالله.

كان هذا الجانب من الواجهة العلمية حقيقة معنوية ومجرد فكرة عقلانية، أشبه بتلك التي وصل إليها العالم الطبيعي فى تحليله للمادة. فبينما نجده يبدأ أبحاثه من أساس واضح ملموس، وأعنى به حقائق المادة إذا به يصل فى نهاية الأمر، عن طريق العناصر والذرات والجزيئات وحبيبات الأثير، إلى تعريف مجرد غير ملموس، هو أن المادة تتألف من ذرات عديدة فى حركة دائبة. فبعد أن شرع علماء الطبيعة يبحثون مستندين إلى شئ معروف ملموس،، إذا هم قد انتهوا إلى لا شئ، أو إلى ما هو بالنسبة لإدراكنا المادى أتفه مما بدأوا به.

وهكذا بدأنا وغيرنا بتراث جوهرى - وإن لم يكن مصدر راحة لنا - أقول بدأنا بتراث جوهرى من العادات والتقاليد الدينية التى ساعدتنا على تصور الله فى صورة معنوية مجردة لعلها الذرات العديدة ذات الحركة الدائبة... من يدرى؟

وقد بلغت قدرة بعض الطلاب حدا بعيدا فى هذا المضمار، وأعنى به تصوير الله فى صورة انسان، وتحويل كل ما هو مادى ملموس فى الدين إلى مستوى التفكير المجرد، حتى لم يتبق لهم آخر الأمر معتقد واحد ملموس يعتنقونه،، كما أصبحوا كالعديد من أساتذتهم من كبار المحدثين والمتشككين. أما بقية الطلاب، فكانوا من الغباء، أو قل من المناعة بمكان، بحيث كانوا يصمدون أمام كل المعانى والتفسيرات التى كانوا يتفونها بالكلية، وظلوا على إيمانهم بتلك المبادئ والأنظمة الفجة التى اكتسبوها منذ طفولتهم المبكرة. وهنا يمكننى أن أقدر، وأنا جد واثق من صحة قولى، أن تحرر الطلبة من

العقائد الدينية كان يتناسب تناسبا طرديا مع رقم ذكائهم
القياسي. فكلما ارتفعت نسبة الذكاء أدركوا تفاهة الدين
وسخافته.

وبعد أن نلت وزوجتي إجازة الـ «فى بيتا كاياء»، كان عقلانا
قد تشبعا بهذا الرأى إلى الحد الذى أصبحنا معه من كبار
الملحدين، وإن كان بنا ثمة إيمان بالله فهو أضعف أنواع
الإيمان وأشدّه هزالا.

وفى النهاية، خلصت من حديثى مع زوجتى ونحن لا نزال
بالقطار، إلى أننا لن نحاول تشجيع ولدينا على الاختلاف إلى
الدروس الدينية، كما أننا فى الوقت نفسه لن نحثهما على
الامتناع عن حضورها، واستقر رأينا على أن ندعهما يفعلان
ما يريدانه بأنفسهما صائبا ولا داعى لتكرار تلك العقوبات
الصارمة التى كان أبائنا يوقعونها علينا، ولندع أطفالنا يفعلون
ما تشير به عقولهم، فإن شاءوا الاستماع إلى هذه الدروس
فليترددوا عليها، والا فليفعلوا ما بدا لهم.

والواقع أن كلينا كان شديد الارتياح لهذا القرار الذى
يواكب أسلوب عصرنا الحديث، والذى يسمونه فى علم النفس
بالتعبير عن الذات. كنت وزوجتى أحد أولئك الأزواج العديدين
الذين وصلوا وقتذاك إلى مثل هذا القرار، فقد سمعنا
الكثيرين من الآباء يرددون أنهم لن يبعثوا بأولادهم إلى
الدروس الدينية أو الكنيسة حتى يصلوا إلى السن التى
يدركون عندها ما يجرى حولهم، غير أن ما كان يقض
مضجعهم هو السؤال التالى: ترى هل يكتسب هؤلاء الأولاد

ذلك الشعور القوى الذى يمكنهم به التمييز بين الخطأ والصواب؟ وهل يؤمنون بتلك المثل الخلقية الواضحة التى آمنّا بها منذ طفولتنا؟

لقد كنا نقول فيما مضى ان بعض الاعمال خطأ والبعض الآخر صواب، لأن الله سبحانه وتعالى قد حدد ذلك، وقد تكون هذه الطريقة فطرية بدائية، غير أنه مما لا شك فيه أن تأثيرها كان ناجعا إذ ألمنا إلى حد بعيد وفى وقت مبكر بما هو خير وبما هو شر. أما الآن فليس أمامنا أن نقول لأولادنا إلا إن هذا التصرف خطأ وإن ذلك صواب لأننا نرى ذلك، أو لأن المجتمع قد اتفق على ذلك. ترى هل لهذا الرد من القوة والبيان ما لسابقه؟ وهل له مثل أثره الناجع؟

وهل يمكن أن يكتسب أطفالنا القيم الخلقية الأساسية للحياة السوية دون الحاجة إلى ضغوط العقائد الدينية، تلك القيم التى بتنا نتقبلها ونسلم بها حتى بعد أن أصبحنا لا نسلم بمصدرها الإلهي؟

الواقع أننى لا أستطيع أن أذكر عدد المرات التى كان يُطرح فيها هذا السؤال على. غير أننى أذكر جيدا أننا بدأنا نحس المسئولية التى تلقيناها الأبوة على عاتقنا، وأننا لم نكن مؤهلين للإجابة عن هذا السؤال. ومهما كان نوع الإجابات التى صدرت عنا، فقد كنت موقنا أنها كلها خاطئة من جميع النواحي النفسية والفلسفية والعقلية.

إن تربية الأطفال لمن أشقّ الواجبات وأخطرها وأدقّها، إذ تنطوي على مشكلات شديدة التعقيد والعسر، وهى بعد ذلك ذات أوجه متناقضة عند حلها يكون معها الآباء فى مسيس الحاجة إلى أية معونة خارجية مهما بلغت درجة تواضعها وبساطتها.

وقد كان طبيعياً، بعد أن استغنى الآباء المستنيريون عن المعتقدات الدينية، ضارين بها عرض الحائط، أن يولوا وجوههم شطر مصدر جديد من مصادر المعونة، فلم يجدوا أمامهم سوى علم النفس الخاص بالأطفال. لكن علم نفس الأطفال لم يكن بعد على استعداد لتقديم المعونة لهم، لأن الثقة بهذا العلم لم تكن قد تعدت الثقة النظرية حتى ذلك الوقت. كان البرهان العلمى حينذاك ما يزال جنيماً برغم تعدد نظرياته.

من هنا بدأ الآباء يعتنقون مثل تلك النظريات التى كان أبرزها أن العقوبة البدنية ضارة من الوجهة النفسية، وأنه من الأفضل اقناع الطفل بعمل شئ ما لا ارغامه بالقوة والعنف عليه، وأنه لا يجوز كبت الطفل بل على العكس يجب منحه الفرصة كى يعبر عن ذاته، وأن استخدام الطفل ليده اليسرى على الدوام ليس الا حركة وراثية، وأن الطفل يولد وله مقياس ذكاء أو مستوى من الذكاء لا يمكن تغييره بأى حال من الأحوال، وأنه يجب منح الأطفال علاوة منتظمة حتى يمكنهم إدراك قيمة المال، وأن بعض الأطفال يولدون بطبيعتهم عصبيين أو ذوى حساسية مرهفة، وعليه فلا يجوز ارغامهم على أن يفعلوا ويعملوا ما يفعل ويعمله غيرهم.

وللاسف، لم يظهر أى برهان علمى أو نفسى يؤيد هذه النظريات، بل على العكس ثبت أن كفاة هذه النظريات خاطئة. فاستخدام اليد اليسرى ليس حركة موروثة بل مكتسبة يأتيها الطفل إبان مرانه المبكر، كما أجمع معظم المشتغلين بعلم نفس الأطفال على أن العقوبة البدنية ليس مسموحا بها فحسب، بل هى أنجح الوسائل أثرا فى بعض الأحيان مع الطفل، وأنها أقل ضررا من المناقشة المستفيضة والاقناع المتواصل، كما أن لجوء الآباء للأوامر الجبرية القاطعة والسلطة التى لا ترد يعتبر عنصرا لا غنى عنه عند تربية الأطفال. كما أنه ليس صحيحا أن مقياس الذكاء هو الدليل المؤكد على قدرة الطفل العقلية، إنما هو مقياس تقريبي لما يمكن أن يأتيه الطفل فى المحيط التعليمى السائد، فضلا عن أن البيئة التى يشب فيها الطفل - صالحة كانت أم طالحة - تؤثر على مقياس الذكاء وتغيره. أما العلاوة المادية المنتظمة ، فبالرغم من أنها قد تعطى الطفل فكرة عن قيمة المال إلا أنها قد تنمى فيه عادة الكسب دون عناء المسور الكسب دون عناء. كما أن المبالغة فى تأكيد أهمية التعبير عن الذات، تلك المبالغة التى تغذيها وتقويها الرغبة فى التعليم التقدّمى فقد تؤدى إلى الفوضى العقلية العقلية والخلقية. والتعبير عن الذات أمر ضرورى مرغوب فيه، إنما ينبغى أن نختار لذلك الفرص المناسبة، وما تلك الفرص إلا النظام والعادات المصطلح عليها بين الناس ليعيشوا معا يسودهم التآلف والانسجام.

وقد اخذت أقوم بالتجارب فى السنوات الثلاث الماضية لاستنباط اختبار للأطفال بين العاشرة والثامنة عشرة، لقياس صفات معينة من الشخصية أو العادات، على نمط اختبارات مشابهة اكتشفها بعض علماء النفس لتطبيقها على الكبار^(١)، اما الصفات التى يقيسها هذا الاختبار فهى:

الانبساطية : أو عادة الانتباه إلى الغير والالتفات إلى ميولهم، وعادة تنمية المهارة والمنافسة فى وجوه معينة من النشاط.

القدرة الاجتماعية : أو عادة السعى إلى لقاء الناس والتعامل معهم.

التحكم الاقتصادى فى الذات : أو عادة الكد والعمل فى سبيل اكتساب المال أو أى هدف آخر له قيمة المال.

المعاملة الصحيحة بالنسبة للجنس الآخر : أو عادة لقاء أفراد الجنس الآخر والتعامل معهم.

وقد طبق هذا الاختبار على ألفى طفل، وأجرى عليه تحليل احصائى دقيق، وتمخضت نتائج هذا الاختبار عن أن العادات التالية يجب أن تكون على رأس قائمة العادات الهامة الملازمة للشخصية.

(١) بعد أن فرغ المؤلف من هذا الاختبار سَمَّى «اختبار لِنُك للشخصية» وقد طبق فى مئات المدارس بالولايات المتحدة كمتعم لاختبار الذكاء وقد أوسع المؤلف فى كتابه شرحاً وتفسيراً The Rediscovery of Man

١ - التردد على حلقات الدروس الدينية، ومواظبة الوالدين على الذهاب إلى بيوت العبادة. وقد أسفر الاختبار عن أن الأطفال الذين ينشأون في مثل هذه البيئة كانوا أكثر انبساطا وأرقى اجتماعيا من زملائهم الذين يفتقرون إلى هذه الميزة، فإن مجرد مواظبة الآباء على الذهاب إلى المعبد كان عاملا هاما في تنمية صفات الشخصية المرغوبة في أولادهم. وكانت مداومة الأطفال على الاستماع إلى الدروس الدينية أحد العوامل الجوهرية.

٢ - إن الأطفال المنضوين تحت لواء جمعية ما، مدرسية كانت أم غير ذلك، والمنتمين إلى أحد النوادي والمشاركين في جوقة موسيقية أو فرقة تمثيلية إلى غير ذلك، والمواظبين على حضور أوجه النشاط المدرسي كالمسابقات الرياضية والرحلات والتمثيليات كانوا أكثر انبساطا وأرقى في علاقاتهم الاجتماعية من أولئك المحرومين من هذا لنشاط.

٣ - إن أولئك الأطفال الذين يعملون مالا يحبون، لا لسبب إلا لأنهم يرون أنه لا معدى لهم عن أن يعملوه، أولئك الذين يحاولون أن يفعلوا كل شيء حتى لو لم يستطيعوا اجادة هذا الشيء، وأولئك الذين ما إن يفتنوا إلى ضعفهم في ممارسة شيء ما حتى يجاهدوا باستماتة في سبيل تحسين قدراتهم، وأولئك الذين يجدون أمامهم عمليين، أحدهما محبب إلى نفوسهم والآخر بغيض اليهم، فيبدأون بذلك الذي تعافه أنفسهم، وأولئك الذين يفعلون كل ما يكرهون

لان ذلك يساعدهم على بلوغ أمنياتهم وتحقيق طموحاتهم،
كل أولئك الأطفال الذين يتصفون بهذه الصفات والميول
يكونون أكثر انبساطا وأشد تحكما فى أنفسهم ممن
يفتقرون إلى هذه الصفات.

وعلى العكس من ذلك فإن أولئك الأطفال الذين لا يفتنوا
الواحد منهم يقول: أنا عاجز عن فعل هذا الشيء أو أنا لا
أجيد ذلك الشيء، وأولئك الذين سرعان ما يفقدون صبرهم
فيحجمون عن المحاولة مرة ومرات نظرا لبلادتهم أو لارتباكهم،
وأولئك الذين يرفضون الاشتراك فى أية لعبة رياضية لأنهم لا
يجيدونها، كل أولئك تجدهم أشد انطواء وأكثر خضوعا من
الناحية الاجتماعية عن زملائهم.

ويأتى على قمة العادات المؤدية إلى الانطواء والخضوع
الاجتماعى والاعتماد على الغير، فقدان المرء لأعصابه بين وقت
وأخر، وتجهمه وعبوسه إذا أتت الرياح بغير ما تشتتهى نفسه،
والمبالغة فى تفسير الأحداث العادية وكثرة اللغط حولها،
ومقابلة الهزيمة بالحزن والاكتئاب، والانشغال بالتفكير فيما
يرتكب من أخطاء. كل هذه الصفات إذا ما تمكنت من الطفل
حرمته اكتساب صفات الشخصية المحبوبة والعادات المرغوبة،
بل تصبح فى الواقع أهم المصادر الأساسية لتولد الشعور
بالنقص واضطراب الاتزان العاطفى فى الطفل، فى حين أن
الصفات التى سبق أن أوردتها هى المصدر الذى يولد الشعور
بالتسامى والاتزان العاطفى فى الطفل..

كما أن عادات انتقاد الغير والسعى الحثيث وراء أخطائهم،
وقطع سياق الحديث، والاندفاع لقول كل ما يخطر بالبال بدلا
من كبت هذا الحافز الذى قد يمسّ مشاعر الغير، كل هذه
العادات من العوامل الرئيسية المؤدية إلى تكوين الشخصية
الخاضعة اجتماعيا والى خلق الشخصية المفرطة الحساسية
كلما انتقدها الغير..

أما الطفل الذى اعتاد إزجاء المديح والإطراء للغير، وقول
ما يعتقد أنه يدخل السعادة والسرور على قلوب الغير، أو
يحاول أن تكون صلته ودية مع كل من يخالطهم سواء كان
يميل إليهم أم لا يميل، وذلك الذى اعتاد التحكم فى شعوره
وضبط نفسه بحيث يكبت ما يتأجج فى صدره من غليان، إن
مثل هذا الطفل يتحلى بصفات شخصية سوية راقية.

وشخصية الطفل الذى يستسلم للنعاس بمجرد رقاذه
بالفرش تكون أفضل من آخر ما يكاد يستلقى على فراشه
حتى يسترسل فى التأمل والتفكير. كذلك الأطفال المشاركون
فى الألعاب والمباريات الرياضية التنافسية يكونون أفضل
شخصية ممن لا يفعلون. كما أن الأطفال الميالين للرياضيات
والعلوم هم أفضل شخصية من الأطفال الذين يؤثرون اللغات
والتاريخ.

وقد ثبت أن منح الأطفال علاوة دورية منتظمة من الآباء كى
يعتادوا الادخار ليس له أى أثر على شخصية الطفل. أما
الأطفال الذين يبيعون الصحف أو غيرها فى أوقات فراغهم

وينضمون إلى جوقات التمثيل والغناء ويحاولون البحث عن عمل بصرف النظر عن ميلهم إلى نوعه، فى سبيل كسب المال يكون الأمل فى اكتسابهم صفات الشخصية المرغوبة اكبر من أولئك الذين لا يفعلون...

وأخيراً أؤكد أن ليس ثمة علاقة بين مستوى الطفل من حيث الشخصية التى يقيسها هذا الاختبار ومستواه فى دراسته، أو ذلك الذى يسمونه اختبار الذكاء العام. وقد اكتشف نفر من علماء النفس أيضاً الأعلاقة هناك بين النجاح المدرسى والشخصية السوية.

مثل هذه الاختبارات المتقدمة، ومثل هذا التحليل للعادات المرادفة للشخصية السوية هى فى الواقع المحاولة التى حققها علماء النفس فى حين أهملها العلماء فى محيط التربية والتعليم، وأعنى بذلك أن علماء النفس قد نجحوا فى حصر العادات والعناصر التى تدخل ضمن تركيب الشخصية الناجحة، على حين لم يحاول علماء التربية والتعليم غير حصر علوم الهندسة والحساب والهجاء والقراءة وكل تلك المواد المفروض أنها تؤدى إلى تشكيل العقل الكامل. فهناك المئات من الموضوعات والألوف من الكتب التعليمية والكثير من الدراسات التى تبين الأساس الذى يقوم عليه التعليم العقلانى، غير أن ميدان الشخصية وتكوينها يكاد يخلو من مثل هذه الجهود.

فالعقول لا تولد بل هى تكتسب بالمران، وكذلك الشخصية يصقلها التدريب ويهذبها. وبالرغم من أننا فى حاجة ماسة إلى

مكتبة علمية تبحث وتجول فى ميدان الشخصية، إلا ان الكتب السماوية ماتزال هى أعظم وأصدق المراجع التى تتناول هذا الموضوع. وقد أكدت مكتشفات علماء النفس هذه الحقيقة، ويختلف علم النفس عن سائر العلوم الأخرى حول هذه النقطة بالذات، فبينما تذهب بقية العلوم إلى أن أفكارنا القديمة ومعتقداتنا عن الطبيعة خاطئة، إذا بعلم النفس يؤكد لنا أن الكثير من السنن والنواميس القديمة لتكوين الشخصية السوية والخلق القويم هى الصواب بعينه.

والواقع أن المفتاح الذى يفتح مغاليق العادات التى بها تتكون الشخصية السوية والتى أتت ضمن هذا الاختبار هو: ان الطفل يستطيع تكوين شخصية سوية وإنماءها إذا ما اعتاد ان يعمل كل مالم يعتد أداءه بطبعه، وكل ما لا يحبه أو يميل إليه.

ويدهى أن الأطفال يختلفون سواء بطبيعتهم أم بحسب تكوينهم الوراثي، لكن مهما كانت هذه الطبيعة أو عوامل الوراثة سليمة جيدة، فلن يتسنى غرس العادات الأساسية بغير النظام. وإذا جُبل الطفل على معارضة النظام كان من الواجب استخدام كل وسيلة ذات تأثير أو ذات صفة جبرية، تساعد على الإسراع فى إكتساب عادة الامتثال للنظام.

وإذا بحثنا من الناحيتين العقلية والنفسية عن أعظم مصادر هذا العون لا نجد غير الدين، فالإيمان بوجود الله يرسله وكتبه يهيه، للأبوين ملجأ أميناً موثقاً به يلجأ إليه،

ويزودهم بسلطة كبرى على اطفالهم كانوا يفتقرون اليها حتما
لو لم يؤمنوا بها. فلم يوجد بعد ذلك البديل الامثل الذى يحل
محل تلك القوة الهائلة التى يوفرها الإيمان بالخالق وبناموسه
الخلقى الإلهى فى قلوب الناس. ومن هنا نجد الآباء الذين
تحرروا من الإيمان من خلال ثقافتهم وإعمال فكرهم حيارى
متسائلين على الدوام، فكيف يتسنى لأولئك الحيارى أن يكونوا
انفسهم ملجأ يلوذ به أولادهم؟

ففى غياب مثل هذا الملجأ الدينى الموثوق بفاعليته وتأثيره لا
يسع كل أب إلا أن يفكر ويمعن فى التفكير، ويبحث ويطلب
البحث قبل أن يهتدى إلى ما يعينه على تفسير مدى الخطأ
والصواب والخير والشر فى كل حالة من الحالات العديدة التى
تصادفه يوميا، وفى كل عادة من العادات المختلفة التى يورثها
غرسها فى طفله.

وكما كبر الطفل ونما، وكما أصبح واقعا تحت تأثير
سلطات المجتمع المتضاربة المقاصد المختلفة الميول والاتجاهات
- كالمدرسة والجيران وزملائه وبيئته - زاد الأمر صعوبة
وأصبح أشد تعقيدا. فالتربية واجب شاق، كما أن البلبله التى
تعشش فى عقول معظم الآباء هذه الأيام خير شاهد على صدق
هذه الحقيقة. والدين هو القوة الوحيدة التى يمكنها أن تعين
الانسان على حل تلك المشكلات الخلقية والعقلية التى لا مفر
من مواجهتها، والتى لا تقفأ تقض مضاجع الآباء والأبناء
والمجتمع كله. ولن تجد فى هذا العالم المضطرب، الذى لا
يمضى فيه يوم دون أن نسمع عن شعب يثور على السلطة

القائمة محاولين تغييرها غير الله وحده هو الحى الباقي الذى لا يتغير ولا يتبدل.

فذلك الطفل الذى اعتنق منذ طفولته المبكرة فكرة وجود الله بصفته المشرع الأعلى للخير والشر، يكون قد اكتسب الحافز الجوهري الذى سيدفعه حثيثا نحو العادات الطيبة. فبدلا من أن ينبنى سلوكه على الحب أو الكراهية نراه ينبنى على فكرة الصواب والخطأ، فإذا عصى أوامر أمه يوما ما يدرك جيدا أنه قد أخطأ، وقد لا يجب أن يعيد لأمه ما تبقى معه من نقود بعد أن اشترى لها مطالبها، لكنه يعلم عن يقين أن هذا التصرف بعيد عن الصواب، وقد لا يرغب أيضا فى التنازل عن أنانيته مع زملائه فى اللعب، ولكنه يرغب نفسه على أن يفعل ذلك.

وطبيعى أن مثل هذه الطريقة ليست من السهولة أو البساطة بمكان، لكنها سرعان ما تنمى فى الطفل عادة التمييز بين الدواعى الأنانية والذاتية وبين العادات الطيبة والخيرة، أو باختصار بين اللذة والشعور بالواجب.

ومما لاشك فيه أن تغلب المرء على الكسل والتراخى وقهره لدوافعه الغريزية الكامنة فيه، هو الطريقة الصحيحة لاكتسابه العادات اللازمة للشخصية السوية. ويقدر ما يفرضه الدين على الطفل من هذه الصفات الطيبة التى ينبغى له التحلى بها، يمضى الطفل حثيثا إلى اكتساب صفات الشخصية الفاضلة.

وكم أدلى إلى الآباء بما يعانيه أطفالهم من كسل طبيعى، ولا شك أن مرد ذلك عند بعضهم أسباب بدنية، لأن الحيوية

والنشاط عادات مكتسبة لا علاقة لها ببنية الإنسان، فيقدر ما يحصل الطفل من مهارات وبراعة، بقدر ما تتحول حيويته وطاقته البدنية إلى أفعال ونشاط، يتخلص بهما من كسله.

وما أكثر الآباء الذين يشكون من أن أبناءهم عصبيون بالسليقة وانهم غالباً ما يفقدون التحكم في أعصابهم. وفي هذا المجال ثبت أنه يمكن تحويل مثل هذه الميول الطبيعية إلى اتجاهات أفضل وأشد نفعاً، حتى قد يصل الأمر بالطفل حداً يجعله يجيد ما يؤديه من عمل، أو يحذق أى لعبة يمارسها. فإن التعاليم الدينية الكاشفة عن الخير والشر، وقدرة المرء على التغلب على نفسه وقهرها، وضرورة بعث الإنسان المتواصل لنفسه من جديد - وهو الموضوع الذى سبق الحديث عنه - تبلغ ذروتها فى الأهمية خلال سننى الطفولة التى يسهل فيها الخلق والتشكيل.

ومهما بلغت المساوىء التى نلمسها فى أماكن العبادة والضجر من الاستماع فيها إلى العظات الدينية، فإن هذه الأماكن تساعدنا على غرس الأسس السليمة للخطأ والصواب فى نفوس الأطفال، وتحديد الأعمال الأنانية وغير الأنانية لهم ، كما انها تساعد على غرس الإيمان بالله فى النفوس، والتسليم بناموسه الخلقى الإلهى مصدراً لتلك الأسس. ولذا فهى ذات فائدة عظيمة للآباء والمجتمع كى يبثوا الأسس الضرورية لتكوين الخلق القويم والشخصية السوية. ومن هنا ليس من المستغرب أن يدلنا الاختبار السابق الذكر على أن الطفل الذى يستمع إلى الدروس الدينية يتمتع بصفات شخصية أفضل

ممن ينأى عنها، وأن الطفل الذى يذهب أبواه إلى الكنيسة ذو شخصية أفضل من الطفل الذى لا يتردد أبواه عليها. وقد اتضح لى بعد دراسة مستفيضة لعشرة الاف شخص أن أولئك الذين يواظبون على الاختلاف إلى دور العبادة كانوا ذوى صفات شخصية أفضل ممن لا يغشونها.

وليس موضوع تهذيب الشخصية الذى نحن بصدده، هو قمع المرء لذاته كما قد يظن البعض، بل هو فى الحقيقة التعبير عن الذات والافصاح عنها. فإن مجرد قمع المرء ذى الاعصاب المتفجرة مثلا لدوافعه الطبيعية لا يعد من الوجهة النفسية إجراء سديدا. وقد تكون المبالغة فى ترديدك لطفلك عبارة «لاتفعل هذا، أو ذاك» أمر ضار، ومع ذلك فليس هناك ما يمنع أن يتضمن أسلوب تربية الطفل بعض القمع المباشر الذى لا خطر منه. .

أما التعبير عن الذات فى رأى، فمعناه استبدال الأعمال والعادات غير المرغوبة بين الناس بتلك المرغوبة بينهم، وأما الخطأ الذى تردت فيه حركة التربية التقدمية، فهو أنها لم تحاول حصر أى أنواع التعبير عن الذات هى المرغوبة أو غير المرغوبة. فقد افترض أصحاب هذه الحركة دون تساؤل كبير أن كل ما يرغب الطفل فى التعبير عنه يستحق منا التشجيع، رافعين مبدأ التعبير عن الذات إلى مرتبة التقديس على حساب الطريقة التى بها يعبر الطفل عن ذاته. فكانت النتيجة الحتمية لذلك أنهم خلطوا ما بين التعبير عن الذات والمبالغة فى الاهتمام بالرغبة الذاتية، وكذلك ما بين اضاعة الوقت سدى واعتقاد

الكبار فى وجوب تعبير الأطفال عن أنفسهم فى حدود أنشطة معينة، كالفنون والتمثيل ومشاهدة الحفلات المسرحية والاستعراضات إلى غير ذلك، فى حين أنهم عجزوا عن أن إدراك أن التعبير الذاتى الناضج والقدرة على الإنشاء والابتكار يتوقفان على معرفة الأصول الجوهرية لكيفية التعبير عن الذات، تماما كما تتوقف المهارة فى عزف مقطوعة موسيقية على إلمام من يعزفها إلماما شاملا بالسلم الموسيقى.

فالطفل الذى يضغط عليه أبواه لمداومة المران على العزف على البيانو حتى رغم إرادته لا يلبث أن يكتسب ألف بلاء التعبير الموسيقى، أما الطفل الذى يسمح له أبواه بالتمرين كيفما شاء وحينما يحلو له، ورسم الصور التى يرغب فى تصويرها، والانسحاق وراء كل ما تشتهيئه نفسه، متوسعا فى تعدد أوجه نشاطه، إنما هو فى الواقع يبدد الوقت الذى كان يمكنه فيه إتقان عدد محدود من الكفايات الجوهرية.

وأسوق للقارئ الآن بعض المختارات مما قد يكتبه أب إلى ولده فى سن السادسة عشرة من نصح وتوجيه.

«ولدى العزيز

... لو سئلت أى الدوافع هو المسيطر عليك فى حياتك يابنى لأجبت بأنه الرغبة فى اللهو وقضاء وقت ممتع فحسب. ووسائل اللهو كثيرة، كالعاب المنافسة ولعب الورق والسباحة والمطالعة والتلفزيون والسينما إلى غير ذلك. أما إذا سئلت ماهو اللهو بالنسبة اليك فأنت قائل: أن أفعل كل ما يحلولى.

مجمل القول إن مفهومك عن اللهو كما خبرته عن كُتب على مدى السنين السابقة، هو أن تفعل ماتريد وقتما تريد، وبمعنى آخر أن اللهو بالنسبة إليك هو مجرد حافز، وإقبال وإحجام رهن اللحظة، هو لهو بغير خطة على الإطلاق.

واللهو وقضاء وقت ممتع جانبا هاما من جوانب تكوين الشخصية فى حالة واحدة فحسب، وذلك إذا كان دليلهما إلى ذلك بضعة اعتبارات هامة معينة. فإن اللهو القائم على الحافز، أو الذى أساسه عمل ما يروقك وقتما يطلوك، إنما هو لهو مخرب هدام يحول دون تكوين الشخصية السوية، فحتى وقت قريب جدا، لم تكن تعدّ التنس لهوا إلا إذا وجدت فى نفسك الرغبة لممارسته، أو كلما كان بوسعك اللعب دون مشقة، أو كلما رأيت الفرصة سانحة لتبارى من لا يجيد اللعب، أو من لا يكثر إذا ما انهزم على يديك حتى ولو كان أمهر منك. وكلما اتقنت اللعب ازداد عدد الأفراد الذين تستمتع باللعب معهم ويستمتعون باللعب معك، إلى أن تهلّ المرحلة التى يصبح فيها التنس بالنسبة لك على مرّ السنين مصدر متعة خصبة وصداقة وطيدة مع غيرك من الفتیان والفتيات. أما إذا كنت تصبو إلى تحسين أدائك حتى تستطيع الحصول على المزيد من متعة اللهو، فمن الأهمية بمكان أن تعكف على اللعب فى شتى المناسبات، لاسيما عندما لا تحس الرغبة فى اللعب. و عليك أن تكرّس الكثير من وقتك لهوايتك فتحدث عنها وترسم لها الخطط وتمارسها مع أولئك الذين تحب اللعب معهم، أو الذين لا يحبون اللعب معك. وليس لزاما لكى تشعر بما فى

لعبة التنس من متعة أن تكون بطلا من أبطالها، وحسبك ما تحصل عليه من تفوق نسبي بمرور الزمن، حتى يزداد ترحيب رفاقك بك لمشاركتهم فى اللعب.

وقد يكون الراديو والسينما والتليفزيون من الهوايات المحببة، ولكن الا تعلم أنك كلما قضيت وقتك فى الاستماع إلى الراديو أو مشاهدة السينما والتليفزيون، قلّ الوقت الذى يمكنك فيه المران على الهوايات التى كان الواجب أن تكون قد برعت فيها الآن، فإن مجرد مراقبة غيرك من الناس يعمل لا يجعل منك عاملا بالمثل. فإذا ابتعدت عن هذه الهوايات السلبية، ووطدت نفسك على المران المنتظم على التنس أو أحد الفنون أو الهوكى أو الموسيقى، وكل تلك الهوايات التى تحاول الآن أن تتعلمها بطريقة سطحية، أصبح مجال اللهو عندك فى السنة القادمة أوسع، ثم يزداد اتساعا بمرور السنين. وإن تجارك نفسها لتنتوى على الكثير من الأمثلة على صدق ما أسوقه إليك، فقد كنت تعشق الموسيقى وآلاتها، لكنك لا تعزف عليها إلا بالطريقة التى تحلو لك بدلا من المران المتواصل الدوب. وذلك هو العناء الذى يكابده من يتشوف إلى النبوغ فى عزف الموسيقى.

وأراك الآن تبذل جهدا جبارا استعدادا لاجتياز امتحاناتك، فإذا أنت تسيطر وتتحكم فى العديد من دوافع لهوك ابتغاء الوصول إلى هدفك. فلتذكر الآن إنك إنما تدفع ثمن ذلك اللهو الذى سبق أن استمتعت به.

وطالما شكوت لى عدم رضائى عن رغبتك فى اللهو! أنت
مخطيء يابنى، فأننا لا اعترض على قضائك وقتا ممتعا، لكنى
اعتقد أنك فى حقيقة الأمر لا تحصل من هذه الحياة على القدر
الكافى من اللهو. وما كان السبب الذى يدعونى إلى الإصرار
على أن تؤدى عملا ماتكتسب منه هو أن أصرفك عن لهوك، بل
لأمنعك أن تبدد وقتك منغمسا فى ذاتك، ذلك الانغماس الذى
تظنه لهوا، ولأحول بينك وبين التردى فى عادة مزاولة ما تريده
فحسب. فلو أنك بذلت جهدك، وجيشت ملكاتك العقلية نحو
التفوق فى دراساتك أو فى أى فن من الفنون أو بعض ألعاب
المنافسة أو فى صلاتك الاجتماعية أو فى المباريات العامة، لما
وجدت منى الإصرار على قيامك بتلك الواجبات المنزلية التى
أكلّفك بها.

وإنى موقن أنك من الذكاء بحيث تدرك ما تنطوى عليه
رسالتى من منطق سليم. إن ذلك الذى كنت تظنه لهوا إنما هو
رنيلة الانغماس فى الذات والانسياق وراءها. ولقد رأيت منك
الكثير من المظاهر التى تدل على امتلاكك قوة التحكم فى
دوافعك، والقدرة على إعادة تشكيل عاداتك من جديد. ثم إن
جنوحك الأخير نحو المزيد من ممارسة لعبة التنس لهو خير
دليل. ومن هنا أرجو أن تكون خطوتك التالية - وأظنها ستكون
أهم خطوة تخطوها فى حياتك كلها - أن تغير مفهومك عن
اللهو، من نشاط تتحكم فيه النوازع، إلى لهو قائم على خطة
مرسومة.

وتكمن المفارقة في أن قدر اللهو الذي تستمتع به لا يقاس بمدى المهارة التي تكتسبها بعد طول المران فحسب، بل بقدر المتعة التي تُضفيها على الغير. فبقدر ما تبذل خلال مبارياتك وصالاتك الاجتماعية - مهما كان نوعها - لكى تهيبى للآخرين فرصة الاستمتاع بوقت طيب والإحساس بالسعادة يتضاعف عدد أصدقائك، وتتوالى عليك الدعوات، وتتعدد فرص متعة اللهو أمامك. ومن ثم يمكنك أن تضفى نكهة لذيذة، على كل شوط من أشواط التنس وأنت تبارى خصمك إذا ما تحكمت فى نوبات غضبك، وتوقفت عن انتقاده وأثنت على كل لعبة ماهرة يؤديها. وبالمثل يمكنك تطبيق هذا المبدأ على كل نشاط آخر تزاوله مهما كان نوعه».

إن هذه الرسالة فى حقيقة الأمر هى محاولة لحمل الإبن على أداء ما كان ينبغى أن يؤديه منذ ثماني سنوات على الأقل عن طريق التربية الدينية، وفرض النظام غير المسبب دون حاجة الأب إلى توجيه هذه النصائح عن طريق المنطق والفكر. فإن الوقت الأمثل لتعليم الطفل كيف يُخضع دوافعه لقيم عليا، هو السن التى يستطيع فيها أن يتقبل ما يقال له دون أن يفهمه.

فإذا استقر رأى الآباء على عدم إرسال أولادهم إلى الدروس الدينية حتى يبلغوا السن التى يفهمون عندها ما يستمعون إليه، فهم فى الحقيقة يتبعون مبدأ هدأما، لأن الوقت يكون قد فات لإصلاح ما فسد إذا بلغ الطفل السن التى يفهم بها كل ما حوله ويكون عندها قد أضرع من عمره سنين جدُ ثمينة.

الفصل السابع

الحب والزواج

«ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف،

(البقرة ٢٢٨)

«ليوف الرجل المرأة حقها الواجب، وكذلك المرأة
ايضا الرجل،

(رسالة بولس الرسول الاولى الى اهل كورنثوس ٧: ٣)

اتضح لى بعد مضى أكثر من عشرين عاما فى دراسة السلوك البشرى، أن نصائح الكاتبة المعروفة دوروثى ديكس التى أزجتها الى قومها فيما يتعلق بالسعادة الزوجية، أعلى قدرا وأعمق أثرا من كل ما ورد بالمؤلفات والأبحاث التى قام بها العلماء المختصون فى هذا الموضوع، فبينما هم يقفون كل أبحاثهم على كلتا الناحيتين الجنسية والعاطفية، تناولت الأنسة دوروثى ناحية التعاون المتبادل بين الزوجين. و بينما هم مغرقون فى وصف المرأة الباردة جنسيا أمعنت هى فى وصف ربة الدار المستهترّة. و اذا هم أسرفوا فى الحديث عن الرجل المفرط فى الغريزة الجنسية، تعقبت هى الزوج الخمول الكسول، وعلى حين انهمكوا هم فى إزاحة الستار عن معنى الأحلام والرغبات والطاقة الجنسية المكبوتة، انصبّ جهودها فى نصح الزوجات كى يكن خيرا مدبرات لبيوتهن، والأزواج ليمنحوا نساءهن مصروفات عادلة معقولة، وناشدتهما معا أن يتصرفا تصرف العقلاء الحازمين.

ولابد لى من الاعتراف بانى كنت متأثرا الى حد بعيد خلال السنوات الأولى من اتصالى بالناس بحكم مهنتى بذلك الرأى القائل بتأثير الناحية الجنسية على السعادة الزوجية. وبمرور الوقت أدركت أن عدم التوافق الجنسى إن هو إلا واحد فحسب من بين الأسباب العديدة التى تؤدى الى التعاسة الزوجية، وإن كان أقلها حدوثا. ويبدو لى أن مداومة الإشارة الى هذا السبب كعامل هدام، مردّه فى كثير من الأحوال الى ذلك التأكيد الزائف لأهمية الغريزة الجنسية، هذا التأكيد الذى شجع على الولوغ فيه ما تنادى به مدرسة فرويد من نظريات شبه علمية. ومن البديهي أن هذا الاهتمام لا يؤدى الى كشف النقاب عن حالات عدم التوافق الجنسى الحقيقية فحسب، بل هو الذى يخلق عدم التوافق فى عقول الأفراد الذين يتلمسون سببا يبررون به شقاهم فى حياتهم الزوجية.

وقد دلت أبحاثى على أن تحقيق التآلف فيما يتصل بالغريزة الجنسية غالبا ما يكون أقرب منالا من تحقيق التآلف فى أنواع السلوك البشرى المتعددة الأخرى التى قد تقيم صرح السعادة الزوجية أو تهدمها.

ويعنى آخر أنه من الخير الإغراق فى الحديث عن الأخلاق السوية والشخصية غير الأنانية والعادات القويمة التى هى دائما من مستلزمات الشخصية السوية عن الخوض فى تفاصيل الغرائز الجنسية.

ولقد أدلى الدكتور برنارد ساش أحد الباحثين الثقة فى هذا الميدان والعميد السابق لأكاديمية نيويورك الطبية وأبرز إخصائي الأمراض العصبية فى أمريكا بتصريح قال فيه : «من الغريب أن يستشرى ذلك الاهتمام العظيم بالمشكلة الجنسية فى أمور الزواج إلى اليوم، على حين نهمل عوامل أخرى أشد منها أهمية. فلقد سمعنا الكثير عن مدى طغيان عامل الجنس على عصرنا الحالى، بينما الواقع أن كثرة الحديث عن هذا الموضوع هو الطغيان بعينه. وبدلا من أن تبذل المؤسسات المتخصصة جهودها ووقتها فى استنباط أفضل الوسائل لتنمية الأمانة والصدق واحترام السلطات والوطنية والإيثار فى نفوس الأطفال والناشئة، نراها تضيع ذلك الوقت سدى لتثقيف الناس ثقافة جنسية».

مثل هذا التعلق بالغريزة الجنسية، وكل ما أسفر عنه من بدع، كزواج التجربة، والسعى وراء الزوجة أو الزوج المماثل فى الطباع والعادات، وحق الإشباع الجنىسى فى الزواج^(١)، كل هذا قد حول الانتباه عن المغزى الأساسى الكامن وراء فكرة الزواج. فالزواج إن هو إلا خطوة يخطوها فردان غير كاملين لتوحيد جهودهما نضالا فى سبيل السعادة والكمال، به يقيمان صرح وحدتهما الاجتماعية الصغيرة المتواضعة ليتمكننا من مسابرة المجتمع المضى فى موكب الحياة. فالزواج إذن درجة من درجات النمو الإنسانى السيكولوجية والبيولوجية، وهو

(١) اعتقاد الزوج أو الزوجة أن عقد الزواج يخلو لأحدهما أو لكليهما الحق فى الإسراف فى إشباع غريزته الجنسية.

يكاد يكون فرصة لنيل السعادة، إما أن ينجح المرء فى انتهازها واقتطاف ثمرتها، وإما أن يبوء بالإخفاق. وما كان الزواج كما يعتقد الكثيرون هبة تجلب الهناء على طول الخط وبناء عليه فلا يصح أن نطالب بضرورة تحقيق الوفاق فى الزواج إلا كما نطالب بضرورة تحقيق الوفاق فى أى هدف آخر من أهداف الحياة. أعنى أنه يجب علينا السعى والكد فى سبيل الحصول على هذه السعادة المنشودة. فلقد فرضت الشريعة الزواج وأحلته ليكون وسيلة الى حياة أهنأ وأوفر، لا ليكون تجربة يكتشف فيها المرء ما إذا كان شريكه مناسبا له أو مناقضا.

ولكى أوضح الفارق الكبير بين الفكرتين أسوق قصة رواها لى أحد زملائى فى المهنة ممن تربطهم بعلم النفس أوثق الصلات. فقد كان يجد نفسه مضطرا إزاء ظروف بعض المترددين عليه لاستشارته الى نصحهم بعدم الزواج، ويروى قصة شابة ظل أحد الشبان يلاحقها ثمانى سنوات بلا انقطاع علّه يظفر بها كزوجة، ولم يكن بالشاب ما يعيبه على الإطلاق، وقد أطالت الفتاة التفكير قبل أن تسمح له بمواصلة السعى وراءها، بل لقد حددت له مرارا موعدا لعقد قرانهما، وكلما حان الموعد كانت تتعمد التخلص من الموقف والتهرب من الوعد، إما بالتزامها الفراش أو بادعاء مرض أحد أفراد عائلتها أو بانتحال عذر يبرر وجودها فى غير مكان إقامتها. وخشى الشاب أن تكون خطيبته قد أصيبت بأحد الاضطرابات العصبية فأصر على عرضها على طبيب نفسانى. وعندما

اصطحبها الى زميلى سألته ان يصدقها النصح فيما إذا كان الأفضل لها أن تقدم على الزواج أم تحجم. وبعد مناقشات طويلة تبين له أنها شديدة التعلق بأبيها ولا تفتأ تقارن به كل الرجال، وثبت له أن تعلقها بأبيها وملازمتها إياه هو السر فى عزوفها عن الزواج وتردنها فى قبوله، فنصحها بعدم الزواج من هذا الشاب أو من غيره، لأنها ستظل دائما تعاني من ذلك الاعتقاد الكامن فى اللاشعور بأنها قد تزوجت أباهما مهما كانت فضائل الرجل الذى تزوجته.

وثمة قصة أخرى تكاد تكون نقيض الحالة السابقة، وتدور حول رجل أتانى يوما وسألنى لاهثا عما إذا كان يجدر به أن يتم عقد زواجه الذى حدد الأسبوع التالى موعدا له، لا سيما أن بطاقات الدعوة قد وزعت وتم إعداد ترتيبات الحفلة. ثم استطرد قائلا إنه لا يجب أن يخيب ظن الفتاة وأسررتها لكنه يخشى ألا يوفق فى هذه الزيجة، ولذا فهو متردد بين الإندام والإحجام، فجاء يطلب النصيحة. وأغلب ظنى أن كلمة واحدة مثبتة منى كانت كفيلة بتشجيع الفتى على المضى فى إحجامه وتردده، غير أنى أثرت التمهل وسألته عما إذا كان قد عرض نفسه للفحص الطبى ليتأكد من لياقته للزواج، فأجاب أنه قد خاض هذا الفحص واطمأن على سلامته، فاستطردت أناةشه حول الفتاة التى كان ينوى العقد عليها وحول أسرتها، وكل الظروف المحيطة بالزواج.

وعندما تبين لى أن ليس ثمة مانع يحول دون عقد هذا الزواج، ولما كان الفتى ذا شخصية غير جذابة فقد بدا لى أنه

لو وفق فى الحصول على هذه الزوجة لكان كسبه ضخما، فقد كان شخصا متقاعسا منطويا وطفلا مدللا يرهب الحياة ويخشاهما. خلاصة القول أن هذا الرجل بالذات لم يكن النموذج الذى تنشده أية زوجة عادية.

لقد تراءى لى أن الزواج وما يقتضيه من مسئوليات والتزامات قد يكون دافعا إلى خلقه خلقا جديدا، لذا حثته بكل ما فى وسعى على أن يُقدم من فوره على الزواج بعد أن أقنعته بأنه فرصة ذهبية قد هبطت عليه السماء عليه أن يعضَّ عليها بالنواجذ.

ترى أى حق يخول لى أن افرض نظرياتي على مثل هذا الرجل أو غيره فأحكم عليه بالسعادة أو بالشقاء؟ وما شأنى حتى أتدخل بين زوجين عقدا عزمهما على مجابهة الحياة معا؟ وإى حق لى فى أن أثبط عزم هذا الرجل عن المضى فى إحدى التجارب الانبساطية الكبرى فى الحياة، لاسيما أنه متردد يقدم رجلا ويؤخر أخرى. ومع أن شخصية هذا الفتى كانت دون المتوسط، والفرصة المطروحة أمامه للنهل من السعادة ضعيفة، فإننى اتساءل أى سلطة تخول لى أو لغيرى أن أحرمه من فرصته فى اقتناص السعادة، أو أن أنصح عروسه بالانتظار حتى تلتقى بمن هو أفضل منه؟

فى مثل هذه الحالات التى يتسبب فيها ماضى الشخص فى تسرب اليأس من إمكانية تحقيق السعادة الزوجية ومن ثم عدم الاطمئنان الى المستقبل، وفى اثاره العقبات فى طريق

الزواج، كنت عندما يكون الشخص لائقاً من الناحيتين الطبية والجسمانية لا أتشبث بالكمال كشرط للنصح بالزواج، بل كنت أشير على المترددين على الزواج، ثم الكفاح فى معركة الحياة لعلمهم يدركون السعادة. كما كنت أفضل السعى والكد لتحقيق السعادة الزوجية - على ما فى ذلك من مغامرة ومجازفة - عن النصح بالزواج المشروط بضمان النجاح المؤكد، فالزواج خطوة هامة من خطوات تكوين الشخصية غير الانانية أو المنبسطة، بل أذهب الى أبعد من ذلك فأؤكد أن المحاولة ثم الاخفاق خير من الإحجام كلية.

ولقد لاحظت بهذه المناسبة أنه قد طرأ تغير ملحوظ خلال السنوات الأخيرة بين طالبات الجامعات فى نظرتهم نحو الزواج باعتباره هدفاً. فعندما بلغت الحركة النسائية ذروتها منذ بضع سنين كانت نسبة كبيرة من نساء الجامعات ينشدن الوظيفة أو العمل كأسمى هدف يتطلعن إليه من حيث مستقبلهن. وفى أثناء السنوات الثلاث الأخيرة وجهت عدداً من الأسئلة نحو بعض أولئك الطالبات، الى جانب دراسة مستفيضة على طلبة الجامعات فى كافة أنحاء البلاد، وتلخصت أسئلتى فيما يلى :

١ - ما هو أهم شىء يمكن أن تربطى به مستقبلك فى الحياة؟

٢ - وهل تعتبرين الزواج ومعاونة الزوج على شق طريقه فى الحياة أكثر أهمية، أو أقل، أو على قدم المساواة، مع مستقبل مستقل بك؟

وقد أسفر الاستفتاء عن أن خمسة وتسعين فى المائة من فتيات الجامعات اعتبرن مستقبلهن كزوجات وأمهات هو الهدف الأول، وأن معاونة الزوج على شق طريقه فى الحياة أهم من الماضى فى الحياة مستقلة.

وهكذا كان الاتجاه الذى أخذ ينمو ويضطرر بين طالبات الجامعات هو ردة إلى الأسس القديمة، غير أنه مما يؤسف له أن نسبة من وفقن إلى الزواج من بين خريجات الجامعات كان أقل من ٩٠٪ بكثير، وبقيناُ هى نسبة ضئيلة إذا قورنت بنسب المتزوجات بين الشعب بصفة عامة.

فالسعى إلى السعادة الزوجية بل إلى اختيار الزوجة أو الزوج المناسب يبدأ فى الفرد مبكراً منذ الطفولة، فكل تلك العناصر التى تدخل ضمن تكوين الشخصية السوية، بما فى ذلك اتزانها العاطفى ومدى نشاطها الاجتماعى وشجاعته فى مواجهة أعباء الحياة، وكل عاداتها المنبسطة لها أكبر الأثر فى الاهتداء إلى الشريك الآخر، بل فى نجاح الزيجة.

فالفتاة التى تمارس لعبة التنس مثلاً تعثر على الزوج المنشود بسهولة أكثر ممن لا يمارسها، والفتى الذى يشارك فى تمثيل المسرحيات المدرسية يهتدى إلى شريكة حياته بسهولة عن غيره ممن يفضلون الاصغاء إلى الراديو أو مشاهدة التليفزيون أو قراءة القصص الغرامية الخيالية، والأطفال الذين يعزفون على الآلات الموسيقية ويشاركون فى فرق المدرسة الموسيقية، أو يمتلكون القدرة على الترويح عن أصدقائهم تكون الفرص السانحة لهم لاختيار رفاقهم أكثر من

تلك التي تسنح لأولئك الذين يستمعون اليهم فحسب، والأطفال الذين تعلموا الرقص والبريدج والبنج بنج غالبا ما يهتدون بعد أن يشبوا الى الزوج أو الزوجة المناسبة بسهولة أكثر من الأطفال الذين تبدو عليهم معالم الرزاة ويعدون هذه الألعاب نافهة سقيمة. وأولئك الذين يبذلون نشاطهم فى جمعيات الكشف أو ينضمون الى جماعات الرحلات أو ينضون تحت لواء الأندية حتى ولو كانوا لا يستسيغون شخصيات كل من معهم أكثر عرضة للزواج من أولئك القابعين فى عقر دارهم. فكثيرا ما أشرت على المنات من المترددين على بأن الطريقة المثلى للعثور على أصدقاء فضلاء هى الاندماج مع أولئك الذين لم تكن نبالى بهم أو نعيهم اهتماما.

ولا أزعم أن التنس أو التمثيل أو الموسيقى وغير ذلك من أوجه النشاط شرطا أساسيا لازما للعثور على الرفيقة المناسبة، انما تنحصر المشكلة كلها فى تنمية عدد كاف من المهارات والعادات التي تشكل فى مجموعها شخصية غير أنانية تبذل طاقتها بسلاسة طبيعية فى أوجه النشاط الاجتماعى التي تدخل السعادة أو التسلية على غيرها من الناس. إذن فالأساس فى الزواج هو الانبساطية كما أسلفت، اعنى تضحية المرء بملاذه ومتعه من وقت لآخر فى سبيل إغداق هذه المتعة على الغير.

ولشد ما سررت عندما علمت أن المدرسة التي ألحقت بها ابنتى قد اتخذت خطوات فعالة لغرس الروح الرياضية فى الأطفال، إذ أنبرت هذه المدرسة تهتم كثيرا بالألعاب ونشاط الجماعات، وتعتبرها وسيلة لتلقين الأطفال الروح الرياضية،

وانطلق القائمون عليها يدرّبونهم على ألعاب المنافسة التي تضم الجنسين، أو التي تقتصر على البنات وحدهن أو البنين وحدهم. ولم تقتصر شهادة ابنتى على بيان نوع سلوكها، أعنى مدى هدونها وطاعتها فى قاعة الدراسة فحسب، بل على مدى تقدمها الخلقى فى ألعاب المنافسة أيضا.

فذلك النفر من الشباب الذى اعتاد ممارسة رياضة عصره سواء التافهة أو الجادة، يكون قد تعلم الأخذ والعطاء خلال حرارة المنافسة، وهو أقل عرضة للخطأ فى اختيار صديقه أو صديقتة، كما أن احتمالات سعادته عند الزواج أكثر من غيره. ولا غرو فهذا النوع يكسب من المعارف والصحاب عددا وفيرا يضم نماذج مختلفة من المستويات الخلقية المناسبة يتيح له الاختيار بينها كما يشاء، فمن تجارب الحياة يتضح لهذا الفريق من الناس أنه وإن كان الشعر المجعد والجمال الفاتن والقوام المشوق والقسمات المثلى البديعة من الشروط المرغوبة المنشودة، إلا أن أهميتها لا تقاس بالنسبة للمهارة التى يستخدم بها الفرد هذه القيم. ولما كان هذا الفريق من الناس عادة من المجموعات المنبسطة ذات العواطف والانفعالات المترنة، فننادرا ما تجده يخطئ التمييز بين الحب المادى^(١) والحب الراسخ المتين. فذلك الشخص المنطوى الذى تدور كل حياته حول نفسه، وحيث مدى معارفه ضيق محصور، تجده ينشد الحب المادى أكثر من المنبسط الواقعى. ولعل إحدى

(١) الحب المادى هو القائم على أساس جمال الجسد المادى.

الخصائص التي غالباً ما يتميز بها المنطوي هي إصراره المستديم على اعتبار كل عواطفه وأهوانه مثلاً علياً منطوية على مبادئ سليمة. ومع ذلك فقد يكون الحب لدى المنبسط أيضاً مادياً أعمى كذلك، فالواقع أن كل عواطفنا عمياء إلا بقدر ما نضئ لها الطريق بتجاربنا، وبقدر ما نرشدّها بمجموعة من المثل العليا التي تجاوزت العاطفة.

والدين لا يزودنا بمثل عليا موضوعية للحياة عموماً فحسب، فلقد كشف الفقهاء بوضوح عن العلاقة القائمة بين هذه المثل والزواج من خلال طقوس الزواج، التي تعتبر الزواج ليس مجرد عاطفة شخصية فحسب، بل هو عقد عام مسجل أمام محكمة أعلى وأسمى وأعمق إدراكاً للحياة من المحاكم الدنيوية. فإذا هذا العقد لا يعدد مباحج الزواج ومزاياه فقط بل يفرض التزاماته وقبوده فرضاً، فضلاً عن أن حفلات الزفاف تمثل تجربة انبساطية ضخمة.

وكما أن صفات الشخصية غير الأنانية لها أعظم الأهمية عند بدء الزواج، فهكذا ينبغي أن يكون الحال في خاتمتها السعيدة. ولا أعنى بذلك أن كلا من الزوجة والزوج ينبغي أن يلعبا التنس أو السباحة أو يهويا الموسيقى أو الشعر، أو أن يتفقا تمام الاتفاق في كل ميولهما، بل أقصد أن يتفقا في ميول معينة، كالعقيدة الدينية مثلاً، أو المبادئ العامة لأسلوب معيشتها وطريقة تربيتهما لأطفالهما، وعلى الأقل بعض الرياضات أو أوجه النشاط التي تمكنهما من إدخال السرور على قلوب أصدقائهما.

والميول التي يمكن أن يتفق فيها زوجان سعيدان وفيرة كثيرة لا يمكن حصرها، ولم أعرف حتى الآن بين مكتشفات علم النفس ما يجيز لإخصائييه أن يصفوا لأي الزوجين الميول أو الخصائص المشتركة التي قد تؤدي إلى سعادتهما. يقول الدكتور آرثر فرانك باين في مقال حديث له: «إن معظم مآسى البيوتات قد تسببت عن زواج امرأة سمراء بشاب يفضل الشقراوات وإن أحد المكتشفات القليلة لعلم النفس الحديث التي تمخض عنها البحث بعد أن خضعت للتجارب المتكررة هي أن لكل فرد من الأفراد نموذج الزوجي الخاص». ومن حسن حظ الإنسان أن علماء النفس لم يكتشفوا بعد هذه «النماذج»، وأرى بدورى أنهم لن يتمكنوا من اكتشاف هذه النماذج الدقيقة التي يمكنهم بها ضمان السعادة الزوجية لأي من البشر. أما الذى وصلوا إليه فعلا فهي خصائص الأفراد التي تساعد على بناء السعادة الزوجية. فالرجل المنبسط أو غير الأنانى يمكنه أن يجعل كلا من الشقراء والسمراء أكثر سعادة من الرجل الأنانى. أما المنطوى فيمكنه أن يجعل حياة أجمل الزوجات أو أكثرهن تدييرا شاققة تعسة. ومع ذلك فقد يتزوج رجل ممن يدور تفكيرهم حول أنفسهم بسيدة غير أنانية أو بالعكس ثم يكون كل منهما سعيدا، وبالمثل قد يكون الزوج أو الزوجة منطوين، لكنهما يهجران أنانيتهما تحت تأثير مسئوليات الزواج، وتربية الأطفال والكفاح للارتقاء بوضع أسرتهما فى المجتمع، وبلوغ قمة السعادة والهناء. فالزواج من الناحية السيكولوجية إن هو إلا ارتباط بين فردين غير كاملين

يوجدان فيه جهودهما للكفاح معا لبلوغ الكمال. والعبرة تكون بمدى التقدم والتحسين الذي يحرزانه، لا بالحالة التي كانا عليها وقت الزواج.

وقد أعلن بعض علماء النفس بأخرة نتائج دراساتهم الواسعة النطاق للعوامل المؤثرة على نجاح الزوجية، بعد أن أجروا اختبارات قياس الشخصية، ومعرفة الميول على ١١٦ زوجا من المطلقين والمطلقات و ٣٤٦ زوجا من المتزوجين. ولعل أغرب النتائج التي وصلوا إليها في هذا المضمار هي أن أولئك المطلقين والمطلقات الذين أخفقوا في حياتهم الزوجية كانوا أقل اتزاناً من الناحية العاطفية وأشد انطواءً وأقل اعتماداً على أنفسهم من السعداء في حياتهم الزوجية. وكانت نسبة المطلقات كبيرة جداً، لأنهن لا يمنحن الخدمة الاجتماعية قسطاً من نشاطهن، ولا يملن كثيراً إلى الرحلات والمؤتمرات والسياحة وجمع التبرعات الخيرية إلى غير ذلك من أوجه النشاط الدال على حب الناس والميل إليهم. وإذا قارنا أولئك الأزواج والزوجات السعيدات بالمطلقين والمطلقات والمخفقين في زيجاتهم نرى الأولين أكثر انبساطاً واتزاناً من الوجهة العاطفية، أو أشد جسارة وأكثر اعتماداً على أنفسهم من الوجهة الاجتماعية، وأنهم يميلون إلى الأنشطة الرفيعة وإلى أداء أعمالهم بالاشتراك مع غيرهم مجمل القول إن كل الصفات والعادات التي تقتضيها الشخصية المثلى هي الصفات الشديدة الوضوح بين السعداء في حياتهم الزوجية

وأقل وضوحا بين أولئك المخفقين فى زيجاتهم أو المطلقين والمطلقات.

إن السعداء فى حياتهم الزوجية كانوا أشد انكارا لذواتهم، فى حين أن التعساء فى حياتهم الزوجية والمطلقين والمطلقات كانوا أكثر انانية. وبالنظر الى هذه النتائج يتضح أن تطبيق القيم الدينية الأساسية التى تحض على الإيثار وحب الإنسان لأخيه واجب لا مناص منه إن كنا ننشد السعادة الزوجية هدفاً.

ولعل إحدى النتائج الطريفة فى هذا البحث هى «أن المطلقين والمطلقات يميلون أكثر من المتزوجين الى الموضوعات الفكرية، ويدخل ضمن هذه الموضوعات الفكرية الفلسفة وعلم النفس والشطرنج. كما يميلون أكثر من الجماعات الأخرى الى السياسيين المتطرفين، ولا يميلون الى الجمعيات المشتغلة بالرياضة والدراسات الدينية.

نخرج من هذا البحث بأن كافة الدراسات الحديثة تؤيد مكتشفات علم النفس التى تحذر من الضرر البالغ الناجم عن الاسراف فى الاهتمام الشديد بالمظاهر الفكرية للحياة دون الأخذ بفضائل المعيشة الواضحة. ففى الزواج كما هو الحال فى كل شىء غيره، قد يصبح الناس عبيدا للسببية، أعنى عبيدا للعقل.

الفصل الثامن التخطيط الاجتماعى

«والبلد الطيب يخرج نباته
بإذن ربه والذي خُـبِثَ لا
يُـخْرَجُ إِلَّا نَكْداً، كذلك نصرف
الآيات لقوم يشكرون،

(الأعراف ٥٨)

«لأن كل شجرة تُعرف من
ثمرها، فإنهم لا يجتنون من
الشوك تينا، ولا يقطفون من
العليق عنباً. الإنسان الصالح
من كنز قلبه الصالح يخرج
الصالح، والإنسان الشرير من
كنز قلبه الشرير يخرج الشر.»

(لوقا ٦ : ٤٤، ٤٥).

عرضت على ذات مرة مشكلة من أعقد المشاكل التى
صادفتنى، أبطالها سيدة شابة وأمها، كانا فى شجار متواصل
مع بقية افراد الأسرة، بخصوص ملكية منزلهم وبعض الشئون
المالية الأخرى. وبمرور الوقت اشتد هذا الخلاف حدة حتى
أصبح انهيار الصرح العائلى أمراً لا مفر منه. فقد عقدت
السيدة وأمها العزم على هجر الزوج وأولادهما الثلاثة ورفع

الدعوى القانونية لحيازة البيت. وعندما بدأت أستفسر عن ماضى أفراد هذه الأسرة العجيبة اتضح لى أن السيدة الشابة كانت إحدى المتحمسات للسلام العالمى وأن نشاطها الاجتماعى الأساسى كان مركزا فى جمعية لمنع الحروب، وأنها كثيرا ما اتخرطت فى مناظرات تدعو الى مناهضة الحروب.

لذا وجدت نفسى مدفوعا الى أن أوجه لها ذلك السؤال: «كيف تتوقعين منع الحروب بين الشعوب فى حين أنك عاجزة عن منعها بين أفراد أسرتك؟».

وبطبيعة الحال لم يكن لسؤالى هذا أى تأثير، ومن ثم اضطررت الى الانسحاب من هذه القضية لأن الضغائن والعادات السيئة التى اتصف بها كل من له ضلع فيها كانت عميقة بعيدة الغور لدرجة وجدت نفسى عندها عاجزا عن عمل أى شىء.

فالتبيب النفسى يستطيع أن يلمس تأصل بذور الشقاق والفقر وعدم القناعة فيمن يتصف بالشعور بالنقص والأثرة والاضطراب العاطفى، مثال ذلك الابن المستغرق فى حرب مستعرة مع أبيه، ذلك الأب الذى أدى كرمه الخاطىء وسخاؤه المفرط الى حرمان هذا الابن من ميزة الاستقلال والاعتماد على النفس. والفتاة التى تشك فى كل صاحباتها وزميلاتها لأنها عاجزة عن تنمية العادات الاجتماعية التى بها تكتسب صداقتهن، والفتى المفرط فى نقده للأنظمة الاجتماعية لأن

إنانيته بلغت حدا جعله غير قادر على البذل والتضحية الكفيلة
بجعله يستمتع بمثل هذه الأنظمة، والشخص الذى بات يعانى
صراعا عقليا وعاطفيا مستديما لأنه عجز عن إخضاع قيمة
الشخصيه للقيم السامية التى تبدوله بعيدة كل البعد عن
المنطق والعقل. كل هؤلاء وأولئك يستطيع علم النفس أن يحدّد
ما يعانون من عقد ويحللها مبينا أسبابها ومسبباتها.

ولعل أحد الأعراض الشائعة لعقدة الشعور بالنقص أو
للإخفاق الشخصى، هى الرغبة فى تغيير النظام الاجتماعى
إما فى البيئة المحيطة بالفرد وإما فى العالم أجمع، فأولئك
الشبان الذين يقاسون من إخفاقهم الشخصى فى الحياة
تجدهم تواقين الى تغيير عائلاتهم لا أنفسهم. والطالب المخفق
فى دراسته لا يفكر فى إصلاح نفسه بل يود لو يغير أساتذته
أو نظام التصحيح. كذلك الموظف الذى يعجز عن الحصول
على المرتب الذى كان يتوق إليه يود التخلص من رئيسه لا مما
بنفسه من ضعف، حتى ذلك العامل الذى لا يجد عملا يرتزق
منه يود لو يغير النظام بأسره.

وقد اتضح لى من تجاربى العديدة، أن أولئك الأفراد
العاجزين عن الوصول الى الصدارة الاجتماعية فى محيطهم،
هم أول الساعين الى أن يصبحوا مصلحين اجتماعيين لتغيير
البيئة المحيطة بهم. والأمر الذى يسترعى الانتباه هو أنه بينما
يكاد يشترط فى المشتغلين بمهنة الإصلاح الاجتماعى التى

نشأت عنها معظم حركات الإصلاح الاجتماعى أن يكونوا من خريجي الجامعات فضلا عن دراسة عليا أخرى لا تقل عن سنتين أو ثلاث، لم يشترط فيهم حيازة صفات الشخصية السوية والاتزان العاطفى اللازمين للنجاح فى معترك الحياة. لذلك لم أكن أتردد عن تثبيط همم مئات الأفراد الذين كانوا يطمحون فى ولوج باب الإصلاح الاجتماعى لأنهم كانوا أوضح نماذج لفرار المرء من واجب إصلاح نفسه.

وقد ثبت لى من تجارىي أن هذه الأعراض أخذت فى التزايد يوما بعد يوم فى مجتمعا، حتى خيل الى أن البلاد كلها باتت تعاني عقدة النقص، فتارة نعزو بؤسنا الى رجال المال، وتارة أخرى الى هذا الحزب أو ذاك، وتارة الى النظام الرأسمالى أو طبقة الأغنياء الموسرين أو ما طرأ من تقدم على التصنيع أو الإنتاج الكمى المتزايد أو المشروعات الإصلاحية. والحقيقة أننا نلوم كل شخص الا أنفسنا وأخطاينا السابقة وأنانيتنا المطلقة التى شملت الغنى والفقير على السواء.

أما المشروعات التى أشير اليها فهى تلك التى يدعى أصحابها أنها لا تقى الفرد مغبة إخفاقه وانفعالاته وعاداته الخبيثة فحسب، بل تحميه أيضا شر تقلبات الحياة عموما. والعجيب فى هذا الأمر أن ترى الآن ملايين المواطنين العاجزين عن تدبير ميزانياتهم الشخصية أو العائلية أشد الناس تحمسا للمشروعات الاقتصادية القومية العامة.

ويقدر ما تصبح أمثال هذه الاصلاحات الاجتماعية ركنا مستديما من أركان البناء الاجتماعى، تكون هى نفسها العامل الأول فى هدم أولئك الأفراد المقصود انقاذهم وتحسين أحوالهم. والهدم هنا معناه حرمان أولئك الأفراد أنفسهم من القدرة على حمل أعباء المسئولية، ذلك الحرمان الذى نشهده فى محيط الأسرة، حيث يظل الأب متحملا مسئولية ابنه حتى بعد بلوغه السن التى ينبغى أن يعتمد فيها على نفسه، وما يحدث لهذا الابن هو بالضبط ما يحدث للمواطنين كافة. وقد نعتوا بعض هذه الاصلاحات بأنها محاولات لخدمة الإنسان «المنسى» على حين أن الانسان المنسى الوحيد فى عرف علم النفس هو من ينسى نفسه ويحيل مسئولية سعادته على غيره.

وكنت أفضل قبل الشروع فى علاج الشباب والكبار أن اشرح لهم مدى ما يستطيع أن يقدمه لهم الطبيب النفسى وما يعجز عن تقديمه إليهم. فما أكثر من كانوا يأتوننى أملين أن يحيلوا مشاكلهم علىّ، ظانين أنى لن ألبث أن أوفق الى تقديم علاج سريع دون ألم. وهذه بلا نزاع أمنية كل مريض.

فكنت لا أفترأ أقول لمن يتردد علىّ منهم: إذا فرض أن أصابك برد أو أى مرض عضوى آخر فعادة ما يشير عليك الطبيب بعلاج ما، كأن تشرب ملء ملعقة كل ساعتين من دواء معين أو تبتلع أنواعا من الأقراص كل ثلاث ساعات، أو قد بطرك فوق مائدة العمليات ويستأصل لك الزائدة الدودية، أو

يصلح لك اعوجاج عظامك دون أدنى ألم. لكن الطبيب النفسى لا يستطيع أن يصف مثل هذا النوع من العلاج عند تشخيصه لمشكلة نفسية، إذ لا يمكنه إزالة العادات الخبيثة باستئصالها من ذهنك، ولا يمكنه أن يغرس فيك مجموعة من العادات المرغوبة، لكنه ربما يوفّق إلى تشخيص مشكلتك، ويقدم اليك بعض النصائح المفيدة فى صورة أنشطة ينبغى عليك أن تؤديها، وأنت وحدك الذى يمكنه ممارسة ما تنطوى عليه هذه النصائح عملياً. وغالباً ما تنطوى هذه النصائح على تلك الأنشطة التى تأبى الآن أن تقوم بها أو التى تجدها مملّة غير مجدية. وبعد أن أفرغ من فحصك وتشخيص حالتك وتقتنع بالنتيجة التى توصلت إليها، سأطالبك بأن تؤدى أمراً أو أمرين لا يشقّان عليك. فإن وفّقت إلى تنفيذ ما أشرت عليك به تكون قد خطوت الخطوة الأولى نحو الشفاء. وعندما تعود إلى نشرع سوياً فى إعداد برنامج آخر. أما إذا لم يمكنك تنفيذ تلك الاقتراحات الأولى فالأفضل ألا تعود إليّ، لأنى كطبيب نفسى لا أستطيع أن أفيدك شيئاً، فواجبى هو تقديم النصح فحسب، وواجبك أنت القيام بالعلاج.

وكنتيجه لهذه النصيحة كنت لا أرى بعض المرضى سوى مرة واحدة فحسب، والبعض الآخر أراه على فترات غير منتظمة. وبينما أنا أكتب هذا الفصل جاعنى، رجل كنت قد فحصته منذ سنة مضت، وكان طبيبه الخاص هو الذى يدرّسه

إلى بعد أن أخفق الفحص الطبى المتكرر فى الوقوف على أسباب نوبات الإرهاق الحادة التى كانت تصيبه بين وقت وأخر. وقد أظهر الفحص أن هذا الشخص لا تعوزه العادات السليمة وإن كان يفتقر فى الوقت نفسه إلى الكثير من عادات الحياة العادية البسيطة. وكانت نوبات الإرهاق التى تنتابه تجعله عاجزا عن القيام بأعباء أى عمل متواصل، أو هكذا كان يظن فى نفسه.

وكان تشخيصى هو أنه كان يعانى من شحنة زائدة من الطاقة لا يعبر عنها التعبير الكافى، وكان رأى فى هذه المشكلة حاسما إذ قلت له إنه إذا لم يوفق إلى عمل ما ويستمر فيه لمدة عام كامل فليس عندى ما أقوم به نحوه.

وعندما عاد إلى فيما بعد قال لى أنه جاء خصبيا كى يبلغنى أنه حصل على وظيفة يعمل بها منذ سنة على الرغم من نوبات الارهاق التى تصيبه بين وقت وأخر فتضطره إلى الاعتكاف بالمنزل بضعة أيام فى كل مرة، وأن الوقت قد حان كى يعرف ماذا يمكنه أن يفعل بعد ذلك، لأن الفحص الطبى الأخير وجدته يتمتع بصحة ممتازة يحسد عليها. ومن ثم شرع بيسطلى برنامج نشاطه الذى خصصه لقضاء أوقات فراغه، فوجدته قد خصص ليلة من كل أسبوع يمضيها فى الجمعية التى ينتمى إليها، وزيارة أسبوعية إما لأسرته أو لأسرة زوجته، وأمسية يصحب فيها زوجته إلى السينما أو إلى أحد المطاعم،

وليلة يقضيها فى اللعب مع معارفه وأصدقائه، وقد أدرج فى حسابها ليلة للإرهاق الذى يصيبه لو أنه حدث. واكتشفت أنه لم يعد يخصص من وقته جانبا لهوايته الأساسية وهى المطالعة، ولا عجب فقد أدرك أنه قد درس الكتب كثيرا، وخبر الناس قليلاً. ومنذ ذلك الحين ونجاحه فى تنفيذ ذلك البرنامج يضطرد، حتى لقد أيقنت أنه سيكتسب من عادات التعبير عن طاقته عددا كافيا يجعل نويات الإرهاق نادرة الوقوع.

ويذهب بعض زملائى إلى أننى قد بلغت حد التطرف فى إصرارى على استقلال المرء واعتماده على ذاته، وخاصة أولئك من بينهم الذين يشجعون مرضاهم على دوام التردد عليهم. والواقع أننى أفضل أن أدع المريض يرتكب الخطأ بنفسه عن أن أعد بالاشتراك معه كيفية ارتكاب أخطائه. وليس هناك شك فى أن الاتجاه السيكولوجى الحديث ينحو إلى جعل الافراد مسئولين عن أنفسهم وعن تصرفاتهم وسعادتهم.

وإنى لأعترف أيضا أن أى شخص عادى قد يحتاج إلى عون مؤقت، سواء كان عوناً نفسياً أو طبياً، روحياً أم مادياً، فقد دفعت الأزمة العالمية كثيرا من المواطنين الذين يعتمدون على أنفسهم إلى حالة يرثى لها ورزأتهم بمصائب لاحد لها، فإذا حاولنا التخفيف من هذه المتاعب التى يزرع تحتها هؤلاء عن طريق اعتمادهم على غيرهم لإزالتها سواء كان هذا الغير هو الطبيب النفسى أم الدولة فنحن نخطئ فى حق أولئك الافراد وفى حق أولئك الذين ينبغى أن نمد لهم يد العون. ومثل

ذلك كمثّل من يشجع شخصا على بيع أثمن ما لديه لقاء قدح من حساء، لأن هذا الإجراء يحرم المجتمع من تلك الفئة التي تجعل مبدأ الكفاية الذاتية أمرا ممكنا في هذه الحياة.

والدارس لتعاليم عيسى الدينية يدرك لأول وهله أنها تدور حول الفرد لا حول إقامة نظام اجتماعي جديد. وقد دلت المكتشفات الحديثة على أن عيسى عليه السلام كان أسلم تفكيراً من زعماء عصرنا البارزين، فهو لم يكن مصححاً اجتماعياً بقدر ما كان مصححاً للناس. وكان النظام الاجتماعي الذي يحظى باهتمامه هو «ملكوت الله» الذي يلجأ إليه الناس كل بحسب عمله لا لأن الله ملزم بقبولهم فيه. لقد رفض المسيح بعزم راسخ وحذر متناه أن يقيد نفسه بأي مشروع اجتماعي، فعندما سئل عن دفع الجزية لقيصر: أحلال هو أم حرام؟ أجابهم بقوله: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، وكان يسخر من الفريسيين لتفاهة معتقداتهم الدينية، كما كان ينتقد الأغنياء لأنهم وضعوا الثروة فوق كل شيء آخر. وكان يقول لتلاميذه: «لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزداد لكم»، وطرده صيارفة اليهود من المعبد^(١) لكنه لم يصادر أموالهم. وكان يأكل مع الغني والفقير على السواء. وبينما كان يحدث على الحذب على الفقير لم يشجع الفقير على أن يحسد الغني. ولما

(١) لما وجد المسيح اليهود يبيعون البقر والغنم بالهيكل، والصيافر جلوساً فيه صنع سوطاً وطرده الجميع من الهيكل وكبّ دراهم الصيافر وقلب موائدهم مستنكراً أن يجعلوا من بيت الله تجارة.

اقتادوه إلى المحاكمة أمام بيلاطس البنطى^(١) لم يجد الأخير
أى دليل يدين المسيح ويثبت أنه كان ينادى بنظام اجتماعى
جديد أو بأى نوع من التأمين الاجتماعى لا ينبع من صميم
أخلاق الفرد نفسه. وفى الوقت الذى كان فيه المسيح لا يهمل
شأن المطالب المادية للحياة، نراه يوجه أكبر قسط من اهتمامه
نحو النهوض باستقلالية الفرد وتساميه فوق أى مستوى مادى
من مستويات الحياة، مخلصا لسنن الاستقامة والكمال.

وقد قام نفر من رجال الدين يفرقون بين النظر إلى الحياة
نظرة مادية والنظر إليها نظرة دينية، فيقول: «إن شهوة
الحصول على المال وعبادة الرخاء هما صنما القرن العشرين
الزائفان»، ومع ذلك نجد بعض الزعماء الدينيين ينادون بمبادئ
أخرى مختلفة كل الاختلاف ومنهم من ذهب شهرته حدا بعيدا
بعد أحاديثه الفياضة عن إعادة توزيع الثروة - حتى بلغ عدد
مريديه عشرة ملايين نفس - وتعديل نظام الملكية وموازنة
الانتاج بالنسبة لحاجيات الاستهلاك^(٢).

(١) الحاكم الرومانى فى اورشليم.

(٢) الواقع أن المؤلف يعبر فى هذا الرأى عن المدرسة التى تطبق مبدأ فصل هذه
الدراسات عن الأوضاع الاجتماعية. مفترضا أن الأخلاق فرع مستقل عن البيئة
الاجتماعية، لا يؤثر فيها أو يتأثر بها إلا بقدر محدود. وفى رأى أن التطور يقتضى
وحدة متكاملة بين عناصر الحياة جميعا، وبالتالي وحدة فكرية فى كل الدراسات.
والذين يستخدمون العقائد الدينية وسيلة لتهدئة تيار التطور أو واده، ينسون أن
التطوير الاجتماعى من القوة بحيث لم تعد تستطيع أية قوة أن تحول بينه وبين
غايته. ومن هنا فقد بات من ضرورات الدراسات المستنيرة أن يوفق الدارس بين
التطور العقلى والمادى للجماعة وهذه العقائد لىبقى كل منهما سليما لا يمس، خاصة
وأنهما لا يتعارضان، على عكس ما نراه أحيانا فى ثنايا هذا الكتاب. (الترجم).

ولا شك أن مثل هذه المبادئ المقصود بها الإصلاح الاجتماعي، وغيرها من المبادئ التي تنادي بها بعض الهيئات الدينية مخالفة لتعاليم عيسى عليه السلام، ولو كان عيسى حياً بيننا الآن لأوى أولئك المشردين الذين لا مأوى لهم فى بيوت الله الخاوية، ولأوصى كل من حظى بعمل يرتزق منه بمد يد المساعدة إلى أخيه المتعطل، ولنصح السعيد المجدود أن يشرب قليلاً من كأس البؤس الذى يتعاطاه غيره ممن هم أقل منه حظاً، ولأقنع الغنى والمقتدر أن يبذلا مالهما وخدماتهما فى سبيل إيجاد عمل مناسب للمتعطلين، ولأمكنه أن يحيل كل هذه الآلام والمتاعب إلى طاقة روحية جبارة وشعور جارف يتولد عند كل فرد من خلال الاعتماد على نفسه. ولو كان يعيش وسطنا لبذل العون المادى لكل من يطلبه كما كان يفعل، لكنه لم يكن ليعد الناس الطمأنينة فى هذا العالم المادى، بل كان يسوق إلى الغنى والفقير على السواء القيم الخالدة للحياة الآخرة باعتبارها مفتاح الحياة الوفيرة فى عالمنا الفانى الزائل. فتراه بدل أن يخضع الضعيف لنظم آلية لا معنى لها، يحاول أن يجعل القوى المقتدر إنساناً ذا عاطفة يمد يد العون إلى أخيه الضعيف من تلقاء نفسه ويوحى من شعوره.

ولقد استقيت هذه التأملات السالفة من وحي عقيدتى الدينية وإيمانى فحسب. أما من ناحية العلاج النفسى فكثيراً ما صادفت إناساً لا يكفون عن التماس ما يبرر ضعفهم. وإنى لأذهب إلى أن مثل تلك الاقتراحات السابقة ليست إلا دليل

الفضل والشعور بالنقص لكن أصحابها يعترفون بصراحة قائلين: «نحن رجال الدين قد أخفقنا فى حمل رسالة نبينا، وعجزنا عن بث روح الإيمان بالله فى نفوس رعايانا، ولما كنا قد أخفقنا فى غرس العادات الدينية الأساسية فى قلوب الناس، فلا شك أن مرد ذلك إلى أن النظام الاقتصادى القائم فاسد. ولهذه الأسباب استقر رأينا على تغيير هذا النظام».

أما كيف يحققون هذا التغيير دون انتقاص من المبادئ الأساسية للدين ومخالفاتها صراحة، فهذا سؤال يظل بلا جواب. وعلى أى حال ليست هذه الوسيلة هى الطريق المؤدى إلى الحياة الوفيرة كما يراها علماء النفس أو الدين الذى أوحى بعودتى إلى التعلق به. فلو قلت لأولئك الشبان الذين يقصدوننى لحل المشكلات التى تصادفهم إبان فترة التعليم أن نظام التعليم الحالى فاسد وينبغى تعديله فوراً لما ساعدتهم بشئ، وإذا صرحت لأولئك العاجزين عن كسب الأصدقاء بأن القيم الاجتماعية القائمة خاطئة، وإذا أعلنت لأولئك المتعطلين أن نظام العمل السارى الآن بحاجة إلى إصلاح وتعديل لما كنت مخلصاً فى تقديم المعونة إلى هذه الفئة. وإذا كنت لا أنكر أن نظام مؤسساتنا الاجتماعية والاقتصادية نظام يعتوره النقص إلا أن بلوغ هذا النظام حد الكمال ممكن التحقيق إذا تولاه أفراد بلغوا بأنفسهم حد الكمال.

الفصل التاسع

آفة التعليم

«بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله».

(قرآن كريم)

«لا يخدعن أحد نفسه. إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم فى هذا الدهر فليصر جاهلاً لكى يصير حكيماً. لأن حكمة هذا العالم هو جهالة عند الله».

(رسالة بولس إلى أهل كورنثوس ٣: ٢٨)

برغم أن خبرتى المهنية كانت مقصورة على البسطاء العاديين من الناس، أى أولئك الذين لم يبلغ شذوذهم حد المرض، إلا أنني صادفت بعض المصابين بعادات جنسية سيئة أو بردائل شائعة، ومع ذلك فإن أشد الرذائل شيوعاً بين المترددين على هى رذيلة لم يكن أحدهم يعدّها رذيلة، وأعنى بها المبالغة الزائدة فى التعليم والتطرف الشديد فى النهل من الثقافة.

وإن التعلق المفرط بالتعليم الرسمى المعترف به لهو إحدى الظواهر البارزة فى التاريخ الأمريكى، فقد بلغ عدد طلبة الجامعات عام ١٨٨٩ فى الولايات المتحدة ٥٥٦٨٧، على حين قفز هذا الرقم عام ١٩٢٨ إلى ٨٥٦ و ٣٤٦ و ١، أو بمعنى آخر بلغ أربعة وعشرين ضعفاً. وفى عام ١٩٣٠ كان ثلث أطفال الولايات المتحدة يتلقون التعليم الثانوى كله أو قسماً

منه، ثم ما لبثت هذه النسبة أن بلغت الثلثين عام ١٩٣٨، وكان الاتجاه السائد حتى نشوب الحرب العالمية الثانية يتجه نحو الاسراع فى زيادة عدد طلبة المدارس الثانوية والكليات.

ويغض النظر عن هذا الاتجاه الطبيعى فإن حركات الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى كلها لا تهدف إلا إلى هذا الغرض، حتى أصبح الأمل فى تعليم كل طفل بالجامعة أو ما يوازيها هو الهدف الذى يراود قلوب الآباء. وطبيعى أن الغرض من نشر التعليم بهذه الصورة هو الرقى بالأفراد، وإعدادهم لمواجهة الحياة، غير أن التجارب التى أجراها علماء النفس فى السنوات الخمس السابقة أثبتت أن التعليم المدرسى بعد المدارس الابتدائية لا يفيد قليلا أو كثيرا فى تحسين الشخصية والخلق، بل على العكس من ذلك إذ اتضح أن أولئك الأفراد الذين لم يتلقوا أى قسط من التعليم لا يقلون فى شخصياتهم، أو فى صفاتهم الشخصية عن خريجي الجامعات، وأن الطلبة الكسالى فى المدارس الثانوية أو الكليات لا يفترون فى صفات الشخصية عن أكثر زملائهم اجتهادا.

وبناء على اختبارات قياس الكفاية المدرسية وغيرها من الاختبارات، كا اختبار روت للشخصية المنبسطة والمنطوية، واختبارى لقياس الشخصية، اتضح أن الطلبة المبرزين فى الذكاء المدرسى ذوو شخصيات ضعيفة، كما أن أولئك الراسبين أو الضعاف فى اختبارات الذكاء، نجدهم ذوو شخصيات سوية. كما أثبتت الاختبارات أنه بينما تتحسن

شخصيات بعض الطلبة خلال فترة التعليم الجامعى أو الدراسة الثانوية، تنحط شخصيات البعض الآخر وتتدهور. وبمعنى آخر أن الكفتين متعادلتان، أو أن التعليم لا يقدم ولا يؤخر فى مجال تحسين الشخصية.

وليس ثمة دليل واحد فى علم النفس كله يثبت تحسن الخلق أو ازدهر الشخصية نتيجة للتعليم العالى الحالى، بل إن الدليل القائم يؤكد أن مثل هذا التعليم لا يفيد الشخصية كثيرا. بل هناك ما يثبت عكس هذه النظرية، فقد تودى مواصلة التعليم الرسمى المعترف به وإطالة مدته إلى تدهور الشخصية.

وبرغم أن هذه النتائج تبدو لأول وهلة شديدة التطرف، إلا أن أصحاب الأعمال والآباء وحتى بعض رجال التربية يؤكدون صحتها وصدقها نتيجة لتجاربههم الشخصية. فلم يعد أصحاب الشركات والأعمال يتلهفون كسابق عهدهم على استخدام خريجي الجامعات، بل أصبحوا يتأثرون عند اختيارهم بنشاط الفرد خارج منهجه الدراسى، ومدى مهارته فى التعامل مع زملائه، أكثر من اهتمامهم بنجاحه وتفوقه أمام أساتذته. يروى عن «كانون» حين سأل أحد الطلبة الذين لم يتخرجوا بعد عن رأيه فى التعليم الجامعى أنه أجابه قائلا: «لا أظن أن التعليم الجامعى يضر الطالب المتوسط الذكاء كثيرا.

وبرغم أن جمهرة كبيرة من المفكرين تميل إلى مثل هذه الآراء، إلا أن ذبوعها مازال محصورا فى نطاق ضيق، وعندما يحين الوقت الذى تثبت فيه صحة هذه النظريات عن طريق

الاختبارات العلمية أو شبه العلمية سينظرون إليها بعين الجد والاعتبار. وعندما يروج انتشار هذه النظريات بدرجة كافية بين الناس سنلمس فى نظمنا التعليمية التى تعتبر حديثة نسبيا حاجتنا إلى انقلاب شامل يتناولها طال انتظارنا له وفات أوانه. وليست تجاربى مع الأفراد الذين أصيبوا بأفة التعليم امرا انفرد به لكنها أعراض لحالة متفشية قائمة بالفعل. وتتضح المعوقات التى تجعل التعليم معطلًا لنمو الشخصية أو دفعها إلى الانحلال من المثالين التاليين، إحداهما شاذة وأخرى عادية.

أما الحالة الشاذة فهى حالة شاب فى التاسعة والعشرين من عمره جاء يطلب معونتى لأنه لم يعد راضيا عن مهنته كمهندس كيمائى متطلعا إلى الاتجاه صوب مهنة أخرى. وكان الشاب قد تخرج فى أرقى المعاهد الهندسية وحصل على أعلى تقدير نظرا لتفوقه، كما نال درجة الماجستير بعد سنتين، ثم درجة الدكتوراه بعد ثلاث سنوات قضاها فى إحدى الجامعات الألمانية الشهيرة يجرى أبحاثه فى أحد فروع الكيمياء. وعند عودته الى وطنه التحق بوظيفة بمعامل أبحاث أحد مصانع الصلب الشهيرة. وفى نهاية العام استغنى المصنع عن خدماته لعدم كفايته فى إعداد الأجهزة الفنية اللازمة لإجراء التجارب المطلوبة. وقد اعترف لى الشاب بصحة ما حدث، وأنه بالفعل يشعر بعدم كفايته برغم محاولاته المتكررة للتغلب على ما يعانیه، ثم التمس منى أن أكتشف، فيه أى استعداد آخر قد يساعده على امتهان مهنة أخرى ذكر من بينها علم النفس.

كانت حالته مثيرة للأسى بسبب الإخفاق واليأس التام
الناجمين عن التسويف الطويل أمام مواجهة الواقع. ولقد
أظهرت الاختبارات أن لهذا الشاب قدرة متوسطة على أداء
العمل الميكانيكى، ولو أنه حاول تنمية هذه القدرة مبكرا لنجح
برغم عدم ميله إلى الأعمال اليدوية. لكنه بدلا من ذلك أثر أن
يسلك الطريق السهل، وأعنى بذلك الدراسة النظرية التى
يحبها، متجنباً فى الوقت نفسه مالا يحبه وهو تطبيق هذه
النظريات عمليا، فلما حان الوقت الذى يحصد فيه ثمار جهده
وجد نفسه عاجزا. وبالرغم من أنه كان حسن الهيئة وتبدو عليه
مظاهر الشخصية السوية ظاهريا إلا أنه كان بحاجة إلى الثقة
بالنفس فظل على تردده إلى أن تولدت لديه عادات انطوائية.
أما شخصيته وقدراته فقد نالها الضعف الشديد خلال سنى
دراسته، تلك الدراسة التى توخى فيها الإشباع الزائف لرغبته
فى الحصول على الدرجات العلمية.

أما الحالة الأخرى فهى حالة رجل أوفر حظا من سلفه ولو
أنه كان مسوقا إلى المصير نفسه. تخرج حديثا فى المدرسة
الثانوية وحاول الالتحاق بقسم الصحافة بإحدى الجامعات،
كما حاول الالتحاق بقسم التمثيل فى جامعة أخرى، ثم قسم
اللغة الانجليزية فى جامعة ثالثه. وكانت أسرته على استعداد
تام لاتاحة الفرصة له للدراسة بأى جامعة لمدة سنتين أو ثلاث
سنوات. كان أبوه من رجال الأعمال البارزين، وكان يأمل أن
يلتحق ولده مباشرة بأى عمل، وكانت أمه سيدة مثقفة تتطلع
إلى أن يدرس ولدها إحدى المهن النظرية. ولقد تأثر الفتى بآراء

والدته وبالتعليم الجامعى تأثرا شديدا حتى أصبح كارها للعالم المادى المحيط به. واعترف لى قائلا: «إنى أتوق إلى معرفة قيم الحياة الثقافية الرفيعة والتمتع بها، وليست بى أدنى رغبة فى التكالب على المال أو أن أصبح من رجاله. وإنى عاشق للغة الإنجليزية، وقد كتبت بها موضوعات أدبية لكنها ليست للنشر، كما انى شغوف بالدراما. وإنى أفكر فى الاشتغال بالتدريس أو دراسة الصحافة أو أن أعكف على تأليف التمثيليات لأنى لا أحتمل فكرة التضحية بثروتى الثقافية فى سبيل الأنشطة المالية الجافة».

ولقد أظهرت الاختبارات النفسية أن استعداده المدرسى متوسط، وإن كشفت عن موهبة فى اللغة الانجليزية واستعداد طيب للصحافة، وأوضح ما كان يبدو عليه هو شخصيته المترددة المهزوزة. ومع أنه شاب وسيم جذاب الهيئة حسن السلوك إلا أنه لم يكن لامعا أو متحمسا، على حين كانت أفكاره غامضة وحديثه يبعث على السأم والملل.

ولم أحاول أن أثنيه عن رغبته فى النهل من الثقافة، بل شجعتة على اعتقاده بأن فى إمكانه اتخاذ الصحافة مهنة له، وحفزته بقدر طاقتى على أن يحصل أولا على عمل فى صحيفة أو مجلة أو دار للنشر مهما كان نوع هذا العمل. ولقد أوضحت له مدى ما وصلت إليه شخصيته التى يعرفها تمام المعرفة من قدرة على الامتصاص حتى أصبحت شخصية «اسفنجية»، وأنه اذا واصل تعليمه فإنه سيظل دوما شخصية

ممتصّة. وبيّنت له أنه يحتاج إلى تنمية قدرته على العمل المشترك مع غيره أو إعادة تحويل طاقته إلى عمل مفيد تحت ظروف المنافسة فى الحياة الاجتماعية، وأنه بعد أن يكتسب بعض هذه العادات سوف يستطيع دراسة الصحافة بنجاح.

وجاعنى بعد ستة شهور ليحيطنى علما بالعمل الذى يؤديه فى إحدى المجلات قائلا: «لم أكن سعيدا فى حياتى مثلما أنا الآن»، ثم أردف متعجبا: حقيقة إن العمل الذى أقوم به ليس عملا بالمعنى الحقيقى، غير أننى تعلمت الكثير عن أحوال الناس وكيفية التعامل معهم، وذلك ما كنت أجهله قبل. وبنحصر عملى فى قصص المقالات ولصقها، ولكننى كلما أحسست أن العمل أصبح رتيبا ثقيلا أتذكر نصيحتك: «أى عمل حتى لو كان حمل الطوب أولف الطرود أو ساعيا، لأن ذلك سيفيدك وسيمدك بقدرات أنت فى مسيس الحاجة إليها وإن وظيفتى الآن أفضل بكثير مما سبق أن زاولته من أعمال، ولقد كان لها الفضل بكل تأكيد فى النظر إلى الحياة بطريقة أخرى مترعة بالصفاء والسعادة. ولسوف ألتحق بالدراسة المسائية للصحافة هذا الشتاء. كان التغير الذى طرأ على سلوك هذا الشاب ومظهره مثيرا، فقد انقلب متحمسا، يتحدث بطلاقة الواثق من نفسه كما أصبح قادرا على تحديد هدفه... لقد انطلقت طاقته الكامنه نحو الخارج».

وقد أمكننى تقديم المعونة إلى عدد كبير من الشبان بأن أرسم لهم الخطة التى يسرون عليها فى تعليمهم من خلال

اكتشاف لياقتهم بواسطة الاختبارات النفسية، ولكنى كثيرا ما كنت امنع منات الشبان من تحقيق المشروعات التى كانت تراودهم، وذلك لأن شخصياتهم أصبحت عاجزة عن مواصلة عملية الامتصاص، وصار لزاما عليهم التعرف إلى البشر الحقيقيين لا إلى البشر الذين تغص بهم كتبهم، وياتوا فى حاجة إلى وضع نظرياتهم التى تعلموها موضع الاختبار، بدلا من حشو أدمغتهم بنظريات جديدة. وبدلا من استمرارهم فى صهر أنفسهم فى بوتقة العلم والمعرفة، أمسوا فى أشد الحاجة إلى صهر هذه المعلومات فى بوتقة الحياة التطبيقية، فقد أضحووا فى حاجة إلى الكف عن الامتصاص كالإسفننج، تلك العملية التى يتلذذون بها كل اللذة حتى غدت رذيلة من رذائلهم وصاروا فى حاجة إلى البدء فى عملية البذل والإنتاج التى يرهبونها ويخافونها.

وهناك الكثير من الأسباب الوجيهة التى تدعم نتائج علماء النفس فيما يتصل بالآثار الضارة الناجمة عن التعليم. وتحوى ملفاتى وحدها ما ينوف عن المائة قصاصة من التصريحات التى أدلى بها بعض رجال التربية البارزين وبعض الهيئات التى وكل إليها دراسة نظام التعليم القائم وكلها تشير إلى الأخطاء والعيوب التى منى بها النظام التعليمى. ومع ذلك فإنى سأقتصر فيما سأسوقه على الأسباب التى ظهرت لى أثناء تجارى مع الافراد، وعلى نتائج الدراسات التى قام بها غيرى من علماء النفس، ففى تصورى أن الطريق المؤدى إلى الشخصية الجذابة هو الطريق نفسه المتبع للحصول على

العادات الانبساطية الذى سبق شرحه، ويتلخص فى اكتساب المرء للخبرة التى تؤهله لتحويل طاقته فى اتجاهات نافعة. فالطفل بطبيعته أول مستهلك لطاقته داخليا، كما أن قدرته على الاستهلاك أو الامتصاص تفوق قدرته على الإنتاج. أما الشخصية الجذابة فأولى صفاتها الإنتاج، بحيث يفوق إنتاجها استهلاكها. وبمعنى آخر ينبغى أن يكتسب المرء عددا وقيما من أنواع المهارة فى إرضاء الغير كى تغدو شخصيته جذابة لسواه. أما كون هذه المهارة ترضية هو نفسه أو تشبعه فهذا أمر يأتى فى المرتبة الثانية. ولما كان العالم كله، والناس جميعا، يسخرون مواردهم فى سبيل «الطفل» ويمنحونه كل ذواتهم، وجب بالمثل أن تسخر الشخصية الفردية نفسها وجودها فى سبيل العالم، أعنى فى سبيل الغير.

وإذا كانت فترة التعليم تساعد على تنمية مجموعة من العادات المرغوبة والعادات الانبساطية، إلا أنها فى الوقت نفسه فترة امتصاص، وأكثر العادات التى تنمىها هى عادات الاستماع والمطالعة والدراسة. ويقدر ما تطول هذه الفترة تزداد عادات الامتصاص ثبوتا ورسوخا. ولما كانت فترة التعليم بالمدارس الثانوية والكليات وما بعد التخرج تزيد عادات الامتصاص تأصيلا، فغالبا ما تتعطل عادات الإنتاج إلى حين، فإذا الطالب يعتاد بالتدريج الاستزادة من الاصفاء والمطالعة والدراسة، والتقليل من العمل والنشاط، فتبرز فيه عادات الامتصاص أو الانطواء بشكل خطير، حتى يصبح الواحد منهم بعد تخرجه عاجزا عن معرفة الخطوة التالية التى عليه أن يخطوها.

وقد بلغت عادات الامتصاص فى حالات كثيرة عُرضت على حد الرذيلة، وأعنى بها رذيلة مواصلة التعليم والتثقف والحياة الفكرية التى ثبت أنها العقبة الكؤود لتكوين الشخصية الجذابة الإنشائية. ولعل أحد الأعراض الشائعة فى الشخصية المنطوية التى بالغت فى مواصلة التعليم هو الميل إلى علم النفس. ولما كانت عجالات طاقة مثل هذه الشخصية لا تدور إلا حول نفسها، فإننا نجد صاحبها يميل إلى دراسة كل ما يجعلها مستمرة فى الدوران، وهذا بلا نزاع خير مثل للاتجاه الانطوائى! أما الشخص المنبسط أى المتمتع بعدد كاف من الكفايات المرغوبة فليس فى حاجة إلى دراسة علم النفس لأنه يمارسه فعلا. إذ لا يمكن اكتساب العادات الطيبة من وجهة نظر علم النفس من مجرد مطالعة كتب علم النفس اللهم إلا إذا أمكن للمرء حذق لعبة الجولف من مطالعة الكتب التى تتناول رياضة الجولف، أو تعلم السباحة من مطالعة الكتب التى تتناول رياضة السباحة، ولهذا فقد حذرت ما ينوف عن الألف نفس من الانغماس فى مطالعة كتب علم النفس. فإن كانت ثمة فائدة تعود على المرء من التعمق والاسترسال فى قراءة كتب الطب والتشريح - وهذا أمر مشكوك فيه أيضا - فلا بأس إذن أن ينكب بالمثل على كتب علم النفس. فكلتا العادتين تخلق شخصا دائم الخوف من المرض، وهما من أعراض الإفراط فى التعليم والمبالغة فى عادات الامتصاص.

وما أشبه التعليم بفترة الحضانة، التى تنزع إني إطانة الفترة التى يمضيها الطفل بعيداً عن تيار الحياة العقلية، برغم

أن الغرض منها هو إعداد الناس للحياة النافعة المفيدة، فكلما طالت الفترة التي يظل فيها المرء محتجباً عن حقائق الحياة العملية انخفضت قدرته على مواجهتها عندما يحين وقت مجابتهها، بإستثناء حالات معينة كدراسة الطب مثلاً، فهي تستلزم قضاء وقت طويل في تدريب شاق متواصل بالمستشفيات عقب التخرج مباشرة. فكل تلك الساعات التي يقضيها الطالب بالمدرسة، وكل ذلك الإرهاق، وتلك النظم التي يخضع لها، تقف حجر عثرة في سبيل تطلع المرء إلى خارج ذاته بدل أن تكون إعداداً له على مواجهة الحياة. ويؤسفني أن أذهب الى أن خفض المستوى الدراسي الذي جاء نتيجة لا مفر منها للربة في حشد أكبر عدد ممكن من الأطفال في المدارس، يجعل من التعليم بالنسبة لأولئك الأطفال القديرين - الذين كان بوسعهم الاستفادة إلى حد كبير من النظام القديم - مجرد نزهة خلوية.

وقد انبرى بعض علماء التربية يطالبون بإلغاء نظام منح الدرجات كوسيلة لانتقال الطالب من فرقة إلى أخرى، وأشاروا بنقل جميع الأطفال ألياً وبلا استثناء من فرقة لأخرى بغض النظر عن مستواهم. وأتصور أن تأثير مثل هذه المشروعات على تكوين عادات العمل وإنماء حاسة الشعور بالمسئولية يكاد يكون مدمراً.

إن نظام تصحيح الامتحانات بمنح الدرجات، هو أحد النظم القليلة التي نجد فيها وجهاً للشبه بين التعليم والعالم الحقيقي

بما ينطوى عليه من ثواب وجزاء ومن امتزاج بين العدالة واستعداد البشر للتردى فى الخطأ. وقد فسرت لاولادى مراراً أوجه الشبه بين هذا المظهر من مظاهر تعليمهم وبين تجاربهم المستقبلية. فالدرجات الممتازة لا تُمنح إلا فى حالتين: الاولى عندما ينجز المرء عملاً جيداً، والثانية عندما يعرف الطالب كيف يرضى استاذَه، والحالة الثانية لا تقل فى أهميتها عن الاولى. وكذلك النجاح المهني والرواتب السخية لا يحصل المرء عليهما بحسن أدائه لعمله فحسب، بل بتأديته بطريقة ترضى رئيسه أو صاحب العمل. فالأول لون من ألوان الذكاء المدرسى، والثانى هو الذكاء القائم على إجادة الاتصال الشخصى بالناس، وهو احد عادات الانبساط المحبوبة التى تجعلك تهتم بميول الغير ورغباته. وأود أن أؤكد أن: الذرع الثانى أهم من الأول، وأن كل خطوة فى سبيل خفض المستوى التعليمى تؤدى بالتعليم الرسمى الحالى إلى أن يكون مثله كمثل مربية لينة تدلل أطفالها، لأنه يشجع على تكوين عادات الامتصاص أو الرضاة الفكرية والخلفية فى الطلبة. وأنها لمأساة أن يستكمل ذلك العدد الغفير من الناس دراستهم التى قضوا فيها سنين طويلة ومروا فيها بألوان مختلفة من التعليم، دون أن يكونوا فى أنفسهم الاستعداد لاختيار المهنة التى سيلتحقون بها.

وما أكثر الذين يترددون على كى أجرى عليهم اختباراً أساعدهم به على اختيار المهنة التى تناسبهم، أو اكتشف فيهم مواهبهم الخفية. ونادراً ما يدركون أن المواهب تكتسب ولا

تكتشف، وأن الوقت المناسب للتفكير فى مدى صلاحية المرء ولياقته هو خلال تلك المرحلة المبكرة التى ينسج الوقت خلالها لتنمية هذه المواهب.

هناك لحظتان حرجتان فى الحياة يلزم عندهما اختبار استعداد المرء ومواهبه الكامنة: الأولى قبل التصميم على الالتحاق بالمدرسة الثانوية مباشرة، سواء كانت الدراسة علمية أو أدبية أو صناعية أو موسيقية أو تجارية أو فنية، والثانية قبل التصميم على الالتحاق بإحدى الكليات مباشرة.

وقد تقدم علماء النفس تقدماً ملحوظاً فى اختبارات قياس صلاحية المرء وتشخيصها، حتى أمكنهم النصح بنوع التعليم الذى يصلح له الفرد ويعود عليه بالفائدة. ومع ذلك فإن مثل هذه الاختبارات لا تتطلب أكثر من ثمانى ساعات أو عشر لإنهائها، فى حين أن نظام التعليم الحالى يصر على فرض ثمانى سنوات من التعليم الخاطئ على طلبته بدلا من أن يتيح لهم تلك الساعات الثمانى لإجراء التشخيص الناجح المفيد.

فليست الشخصية ذات التأثير فى حاجة إلى العديد من المهارات المختلفة فقط، بل هى تتطلب بالمثل تفوقاً نسبياً فى بعض الميادين، وتفوقاً ملحوظاً فى ميدان آخر. أما التفوق النسبى فيكون فى ميادين الرياضة والفنون الاجتماعية والتسلية، وأما التفوق الملحوظ فيكون فى الميدان المهنى. وتكاد معظم حالات الشعور بالنقص التى نصادفها الآن ترجع إلى الإخفاق فى تنمية عادات معينة من عادات الفوز والنجاح.

الفصل العاشر الحياة الوفيرة

«قال أو نبئكم بخير من ذلكم، للذين اتقوا عند ربهم
جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها،»

(آل عمران ١٥)

«وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم
أفضل،»

(يوحنا ١٠ : ١٠)

«ولكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزداد
لكم،» (متى ٦ : ٣٣)

فى أرضنا، «أرض اللبن والعسل» تقوم تباشير حياة أكثر
من غيرها وفرة ورخاء. ولا غرو فقد أصبح هذا الهدف هو
الشغل الشاغل للهيئات السياسية والاجتماعية والدينية. فبتنا
نسمع نغمة جديدة يتغنى بها الحكام والزعماء السياسيون
وأبرز رجال الدين والمنادون بالإصلاح الاجتماعى.

وبالنسبة للطبيب النفسى الذى يتعامل مع الأشخاص الذين
يسعون بطريقة أو بأخرى وراء الحياة السعيدة الوفيرة نجد أن
هذه الرغبة الملحة فى تلك الحياة الوفيرة لها تأثير غير عادى
على الناس، وأن الطبيب النفسى مطالب بالضرورة بمعرفة كنه
السعادة وأسبابها، وعليه أن يلم لا بالظروف المحيطة بالشخص
أو الكامنة فى نفسه وحالاته دون تحقيق سعادته المنشودة

فحسب، بل عليه أن يعرف أيضا الخطوات التي تساعد الناس على تحقيق الحياة الـبغدة الوفيرة لأنفسها، لذلك فهو يدرس بحكم مهنته مظاهر الحياة الوفيرة التي يصبو إليها الناس.

هذا اللون الجديد من الحياة هو المنادة بتحديد تكاليف الحياة اليومية لكل عائلة، وبصرف معاشات سخية للشيخوخة، وبإلا تزيد ساعات العمل الأسبوعية عن ثلاثين ساعة، وبصرف اجور للمتعطلين إلى غير ذلك. وبمعنى آخر المطالبة بكل الوسائل التي تكفل لكل مواطن مستوى خاصا من المعيشة فى كل الأوقات وفى كل الظروف. ومهما كانت تفاصيل هذه الآراء فكلها تتفق فى أنها تنظر إلى الحياة الوفيرة من وجهة نظر الدولار وتلك الأشياء التي يمكن شراؤها بالمال^(١).

ومن تجاربي مع الناس أقول إن مثل هذا المثل الأعلى للحياة الوفيرة ليس إلا مثلا مدمرا هداما. فقد أثبتت التجارب أن الحياة الوفيرة لا تتوفر بـحيازة المال بقدر ما تتوفر بـحيازة العادات، وأعنى بذلك الخلق، فالسعادة لا تتوفر للمرء فيما يمتلك بل فيما يفعل. وليست هى فيما يُؤجَر به الفرد سواء كان قليلا أم كثيرا، بل فيما يمنحه وببذله، لا من ماله بل من نفسه وكيانه. ولا نزاع فى أن السعادة لا تكمن فى الحياة السهلة الراكدة، لكنها تنهيا فى الحياة النشطة الجديدة وخاصة فى السن المتقدمة. وهى لا تنبعث من التعليم الكامل والثقافة

(١) يريد الكاتب هنا للدعوى القديمة التي تعارض مطالبة الجماعات المحرومة بحقوقها المشروعة. إنه يصور لهم أن الحياة أعمق من مجرد المطالب المادية. لكن كل هذه الدعوى لم تعد وسيلة فعالة أمام حقوق المحرومين. (الترجم).

الواسعة بقدر ما تنبعث من صفات الشخصية التي ينميها المرء في نفسه، أو كما سبق أن أوضحنا بالأمثلة الشخصية أنها تتحقق للمرء بقدر ما يستطيع به أن يحول طاقته الفطرية الموروثة إلى عادات مفيدة واختلاط مفيد مع زملائه.

ومن بين المؤسسات الحديثة التكوينية التي تهدف إلى مساعدة الجمهور على بلوغ الحياة الوفيرة تجلّى أثر معسكرات الشباب بوضوح. ففي هذا المعسكر تجاهل الناس المعتقدات الشائعة حول مستوى المعيشة الأمريكية وحول حياة لينة وأشدّ يسرا. وكانت الأجرور في هذه المعسكرات بسيطة لدرجة بعيدة، بل لم يكن مسموحا لمن يتناول أجرا أن يحتفظ منه إلا بالنزر اليسير، في حين يرسل بقية الأجر إلى أسرته. وكان على الرجل أن يعمل أشقّ مما عمل في حياته من قبل، وأن يؤدي أعمالا محددة سواء كان يميل إليها أم ينفر منها. وكان الرجال يحسّون التعب والإرهاق إذا حل الليل فينعمون بلذة النوم الهادئ التي اكتسبوها عن جدارة، وكان عليهم أيضا أن ينهضوا من نومهم في الصباح المبكر سواء أحسوا الرغبة في النهوض أم لم يحسوها. كان عليهم مشاركة غيرهم العمل جنبا إلى جنب مهما تباينت الطبقات سواء أكانوا يميلون بعضهم إلى بعض أم لا يميلون. وكان عليهم أن يأكلوا ما يُقدم إليهم والا فليمضوا دون طعام. كان هذا هو أسلوب حياتهم حتى أضحى مذاق أبسط الأجرور عذبا. ومهما كانت معتقداتهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، ومهما تباينت أذواقهم وتنافرت ميولهم، ومهما كانت رعاية الوالدين

لهم فى البيت وحدهم عليهم، فقد كان عليهم أن يتبعوا من
النظم والقواعد ما تفرضه عليهم هذه المعسكرات.

وكم توجهت بالنصح الى الكثيرين من الكبار المدللين وأبناء
الأسر الموسرة بأن يلتحقوا بمعسكرات الشباب كخطوة فى
سبيل إعادة تكوين شخصياتهم. الى أن أصبح التجنيد
الاجبارى يقوم بما كانت تقوم به هذه المعسكرات إنما بنفقات
أكبر وعلى مدى أوسع وأعم.

ولقد أصبح أطباء اليوم يقرّون بقيمة العمل اليدوى كعلاج
مفيد حتى باتوا ينصحون مرضاهم بالعمل فى النجارة
وصناعة الحصر إلى غير ذلك، كما أصبحت معسكرات
الشباب تضيف إلى نشاطها العام الأنشطة اليدوية، غير أنه لا
يمكن مقارنة الخطوات الوئيدة لتنمية العمل المشترك بالعمل
المشترك فى القوات المسلحة. ولقد اتفقت الآراء على أن
خريجى تلك المعسكرات ذات النظام الدقيق لا يتمتعون بالحياة
الوفيرة فحسب، بل إن لديهم الاستعداد لتحقيق الحياة الوفيرة
لأنفسهم. فقد تعلموا خلال صلاتهم الإيجابية بغيرهم فى هذه
المعسكرات احترام أفراد لم يكونوا ليختاروهم كأصدقاء عن
طواعية بل ومحبتهم كذلك. وفى الوقت الذى أصبحوا فيه
يقدرّون مزايا زملائهم أصبحوا هم أنفسهم يثقون فى ذواتهم
ويقدرّونها، وتلك نتيجة مترتبة على سابقتها. وخلال ضغط
العمل الجماعى، أصبحوا يقدرّون العمل اليومى الدائم فى
المهام التى أنبسط بهم، فلا يتوانون عن بذل أقصى جهدهم.
وقد رسّخت حياة المعسكرات والمخيمات وحياة الجنديّة فى

أذهانهم أن وفرة الحياة وفيضها ليس فى حصولهم على قدر من المال سنويا بل هى كامنة فى نفوسهم. كما تعلموا أيضا تحت ضغط الانضباط والنظام اللذين قُرضا عليهم أن العمل أكثر متعة وإشباعاً من التأمل، وأن الاجهاد الجسمانى أحلى مذاقا من الإغراق فى الذات. وهم يتخرجون فى تلك المعسكرات وهم مدربون على «منح» غيرهم بعض طاقاتهم وعنايتهم، ومن ثم «ينالون» رضى النفس. مجمل القول إنهم قد أصبحوا ذوى شخصيات انبساطية.

وبينما تشكل هذه المؤسسات العظيمة شخصية الرجال وتنمى الثروة المادية فى الوقت نفسه، نجد قوى أخرى مضادة لا هم لها إلا تدمير الشخصية والثروة معا. فإن كل من يطالع الصحف اليومية لابد قد أذهله جنون طوائف كبيرة من الجمهور الأمريكى وتخبط العديدين من زعمائه المشهورين وهم يتسابقون كى يسلكوا أقصر الطرق المؤدية إلى الحياة الوفيرة، حتى بات مبدءاً إعادة توزيع الثروة حافزا سياسيا أشد بأسا وأثرا من خلق الثروة نفسها. وفى غضون ستة أشهر بلغ عدد من سجلوا أسماءهم ضمن مشروع معاشات الشيخوخة ما ينوف على عشرة ملايين نفس. كما أخذت الصحف تفرد صفحاتها بأكملها لنشر صور وقصص تلك القلة من الجمهور التى ربحت ثروات من سباق الخيل متجاهلة أن ملايين غيرهم قد دفعوا نقودهم كى تستولى عليها هذه القلة. وتسابقت المدن والولايات فى تنظيم عمليات اليانصيب كوسيلة لرفع الدخل، ثم بدأ الزحف لاسباغ الصفة الشرعية على الميسر والقمار.

ولعل فى هذا ما يفسر البلبلة العامة التى أصابت عقول الناس فباتوا حيارى أمام المال وقيمتة. إذ يكشف هذا الاتجاه عن أخلاقيات حقبة زمنية وعن العقليات التى تسودها. وما أشبه هذا الاتجاه بما أثار سخط موسى عندما وجد أبناء اسرائيل عند هبوطه من جبل سيناء يرقصون حول «العجل الذهبى» فإذا هو يحطم ألواح الوصايا العشر.

لقد حطم موسى الألواح، أما فى عصرنا، فالناس والزعماء السياسيون والدينيون يحطمون الوصايا العشر باسم الوصول إلى حياة أشد وفرة وغنى وغازرة. ونستطيع القول بحق إن الشعب الأمريكى قد ابتدع شريعة جديدة تحمل الاحترام للوصايا العشر تجرى فقراتها كالآتى:

الوصايا العشر من أجل حياة أكثر وفرة:

الوصية الأولى: الحياة الأكثر وفرة وغازرة تقتضى اللجوء إلى السرقة إذا تيسر ذلك دون أن يلجأ الفرد إلى مخالفة القانون، وإنما عن طريق خروج الحكومة على القانون، وعن هذا الطريق يتملص الناخب من مسئوليته الشخصية ازاء ما يُقدّم عليه من تصرفات.

الوصية الثانية: تغيير الوصية القائلة «ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك» لكى تصبح خمسة أيام فقط، لا تتجاوز ساعات العمل فيها أربعين ساعة دون حساب الأجر الإضافى عن العمل الإضافى.

الوصية الثالثة: لتعويض الإنتاج المتناقص نظرا لاختصار يوم العمل أصبح مسموحا الآن «بالطمع» فى ممتلكات الجار

والاستيلاء عليها، وذلك عن طريق سنّ القوانين الدستورية أو سواها^(١) التي تقتنّ هذا المسلك.

الوصية الرابعة: الوصية القائلة بأنه «لا يكن لك إلهة أخرى أمامي» يمكن تفسيرها بأن الدولة فوق الجميع وأن أي تصرف تتخذه الدولة يصبح حقا بصرف النظر عن أية معتقدات دينية تخالفها.

الوصية الخامسة: يمكن اعتبار الوصية القائلة «أكرم أباك وأمك، لكي تطول أيامك على الأرض» وصية اختيارية لا إجبار فيها. وهكذا صار في الامكان تخفيف أخطار عقدة أوديب^(٢) وتخفيف تأثير الآباء الذين ما زالوا يتمسكون بأهداب الفضائل العتيقة على أبنائهم.

الوصايا من ٦ إلى ١٠:

مراعاة هذه الوصايا متروك لاختيار الفرد في حدود القانون.

* * *

(١) إن نقص الانتاج لا يرجع إطلاقا إلى عدالة النظم الاجتماعية وكفالتها لحقوق العمال، لكنه يرجع أولا وقبل كل شئ إلى سوء الاحتكار وجشع النزعة الرأسمالية المسيطرة في توجيه الانتاج. واذن فليس هناك ما يبرر ملاحظات المؤلف عن الطمع وأضراره الا في مجتمع رأسمالي متناقض - (المترجم).

(٢) عقدة أوديب أي حب الطفل لأمه وكرهه لأبيه. وقد أطلق فرويد على هذه الحالة اسم عقدة أوديب نسبة إلى الملك أوديب الذي روت الأساطير اليونانية عنه أنه قتل أباه وتزوج أمه على غير علم منه بأنهما والداه، ولما عرف الحقيقة فقا عينيه حزنا وكمدا - (المترجم).

ولطالما سمعنا عن انهيار النظام الرأسمالى والرأسمالية. والحقيقة انها ليست الرأسمالية التى انهارت، بل هى أخلاق الناس التى انهارت تحت وطأة نظام مفكك. وأن الرغبة فى الحصول على كل شئ بلا مجهود، أو دون مسئولية جدية لهى الدافع المسيطر الآن على الافراد والمجتمع عامة. ومازال السواد الأعظم من الناس يتخبط على غير هدى بين نظريات الأمن الاجتماعى والعدالة الاجتماعية وسباق الخيل واليانصيب ومعاشات كبار السن وكل أسباب الإثراء السريع، وغيرها من الأجهزة الآلية التى يبتكرونها لتغيير السعادة دون ألم أو عناء. وما بقيت حياتنا العامة وطباعنا تتشبه بمستوى المعيشة المادى الخالص وتنأى عن المستوى الخلقى المطابق لمبادئ الدين السامية سيستمر الفساد الذى نزرع تحته إلى ما لا نهاية.

ولكن كيف يجسر سيكولوجى مهموم بدراسة الشخصيات ولا تتجاوز خبرته أفراداً قللاً أن يصرح بمثل هذه التصريحات الجريئة؟ السبب بسيط. لأن الأحداث والسياسة القومية إن هى إلا صورة طبق الأصل من أحداث الأفراد وقيمهم. فالسياسى الذى يتحدث عن الرخاء القومى هو نفسه الرجل المنوط به تحقيق الرخاء فى محيط أسرته. والناخب الذى انتهى الى أفكار وحلول تتصل بالسياسة القومية، إنما يعكس خلالها نفس التحامل وعوامل الضعف التى تتحكم فى حياته العادية اليومية.

إن تلك الرغبة المحببة إلى نفوسنا لتدليل أطفالنا وتلبية كل رغباتهم بالإضافة إلى الوسيلة المتبعة لتحقيق هذه الرغبات تضرّ بهم ضرراً بالغاً لا يرجى إصلاحه. وهكذا نرى أن الأخطاء المترتبة على رخاء الأب قد تعود بالويل على أطفاله ثم إلى أطفال أطفاله، وهكذا حتى تصل إلى بقية ذراريه.

والثابت أن أطفال الآباء الفقراء ينفردون بميزة هائلة عن أطفال الآباء الأغنياء في ميدان تكوين الشخصية، إذا ما تمكن أبائهم من مقاومة المبدأ الضار القائل بأن العالم ملزم بتدبير أمر معيشتهم وضمانها. ولو كان لى أن أبدى اقتراحاً واحداً بالنسبة لنظام التعليم، لكان هو إرغام كل الأولاد، بين سنى الثامنة عشرة والحادية والعشرين، الغنى منهم والفقير وخاصة طلبة الجامعات على قضاء سنة كاملة فى معسكرات رياضية خلوية تسودها روح التقشف.

إن حياة الأسرة هى حياة الشعب، والحياة الوفيرة بالنسبة للفرد كما هى بالنسبة للشعب المكوّن من أفراد، لا يمكن بلوغها إلا عن طريق كفاية الفرد الشخصية والمثل العليا التى يعتنقها. ولن يتسنى لنا بلوغ هذه الكفاية أو تلك المثل إذا اعتمد الابن على أبيه أو الأب على ثروته الموروثة أو طبقة من الشعب على ثروة طبقة أخرى، أو إذا اعتمد الناس عموماً على حكومة تقوم مقام الوالدين. فإذا كان الأب لا يستطيع توفير السعادة وشراءها لولده لو أنفق عليه كل ما يملك، فكيف يستطيع أبوانا الحكوميون توفير السعادة للشعب مع العلم بأن عطاياهم ومنحهم ليست ملكاً لهم؟

لقد أوصانا الدين بالابتعاد عن الطمع، ولو أنه يخيل إلى أن كلمة الطمع قد اندثرت فعلاً من قاموسنا اليومي الحديث وحلت محلها كلمات وعبارات أخرى مثل: إعادة توزيع الثروة، وفرض الضرائب على الأغنياء لإعطاء الفقراء، والضرائب التصاعديّة إلى غير ذلك^(١).

الطمع في الحقيقة قضاء على الأخلاق، وعلى ملكة الخلق والإبداع. فالصبي الذي يطمع في نقود أصدقائه أو يستنزف مال أسرته إنما يضيع سدى تلك الطاقة وذلك الوقت الذي كان يمكنه أن يتعلم فيه كيف يخلق ثروته الخاصة به في أي سن كان... فالطمع يقتل فينا القدرة على الاستمتاع بالثروة التي نجنيها من الغير: وذلك لأنه يعطل فينا عادات الإبداع والإنشاء والخلق. فليست السعادة في مجرد امتلاك الثروة، بل هي في خلقها وتكوينها، سواء أكانت هذه الثروة صديقاً أم تجارة، أم بيع الفاكهة أم المناداة على الصحف أم رسم اللوحات أم الغناء إلى غير ذلك. وحتى الصداقة قال فيها إمرسون: «إن ثمن الصداقة الحقّة هو قدرتك على الاستغناء عنها».

وثمة معلم آخر لاشك في أنه أعظم منه شأنًا قال: «وقال له واحد من الجمع يا معلم، قل لأخي أن يقاسمني الميراث، فقال له: يا إنسان من أقماني عليكما قاضياً أو مقسماً؟ وقال لهم:

(١) ينسى المؤلف أن الدين نفسه - كل دين - قد حض على عدالة توزيع الثروات لكنها النزعة القديمة قد سيطرت عليه، فوصف محاولات التدوير الاجتماعي لإقرار العدل بين الناس بالطمع، وهو مالم تعد تدين به الشعوب، حتى في الولايات المتحدة نفسها - (المترجم).

انظروا وتحفظوا من الطمع، فإنه متى كان لأحد كثير، فليست حياته من أمواله.. الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس. تأملوا الغريان، إنها لا تزرع ولا تحصد، وليس لها مخدع ولا مخزن، والله يُقيتُها. كم أنتم بالحرى أفضل من الطيور. ومن منكم إذا أهتم يقدر أن يزيد على قامته زراعاً واحدة؟ فإن كنتم لا تقدرُونَ ولا على الأصغر فلماذا تهتمون بالبواقى؟ فإن هذه كلها تطلبها الأمم لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزداد لكم، فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفى اليوم شره...»

(لوقا ١٢: ١٣ - ٢٦، متى ٦: ٢٢، ٢٣، ٢٤)

عن المؤلف

* حصل على درجة الدكتوراه من جامعة ييل بأمریکا عام ١٩١٦.

* عرضت عليه الجامعة منصباً من مناصب التدريس، لكنه أثر التفرغ لأبحاثه العملية ودراساته لحالات الألف من الناس.

* أنفق خمسة عشر عاماً في هذه الدراسات ختمها بإصدار هذا الكتاب.

* قدمت له كبرى الشركات الصناعية كافة التسهيلات لإجراء هذه الأبحاث والدراسات.

* أدار مركز الخدمات النفسية الذى يقوم باختبار استعدادات الأفراد، وهو مبتكر العديد من الاختبارات النفسية مثل اختبارات الذكاء واختبارات قياس الشخصية، أى مدى ما اكتسبه الفرد من العادات والمهارات فى خدمة الغير وإسعادهم.

* يعزى إليه نجاح النظرة التقدمية المتطورة نحو الدين، بعد أن جمع بين دراسة نفسية الفرد ونفسية الجماعة.

* لقى هذا الكتاب رواجاً واسعاً فى أمريكا وأوروبا.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب